وليم شكسبير

العِبرة في النِهاية

تعريب : أنطوان مشاطي

إشراف : نظير عبّود

دار مارون عبّود

وليم شكسبير

العبرة في النهاية

تعريب : أنطوان مشاطي

إشراف : نظير عبود

دار مارون عبود

ص.ب. ٨٠٨٦ - ١١
تلفون : ٩٣٦٧٧٢

الطبعة الأولى

أشخاص الرواية

ملك فرنسا	
دوق فلورنسا	
برتران	كونت روسيّون.
لافو	سيد عجوز.
بارول	صديق برتران.
المهرّج.	
سادة فرنسيّون في خدمة دوق فلورنسا.	
وكيل الصرف.	
غلام.	
رجال حاشية.	
ضباط	
جنود	
كونتيس روسيّون	والدة برتران.
هيلانة	مرافقة الكونتيس.
ارملة عجوز من فلورنسا.	
ديانا	ابنة الأرملة.

فيولنْتا } صديقتا الارملة.
فريانا }

تجري الأحداث تارة في فرنسا وطوراً في توسكانا.

الفصل الاول

المشهد الاول

في قصر كونت روسيّون.

يدخل برتران وكونتيس روسيّون وهيلانة ولافو. جميعهم يرتدون ثياب الحداد.

الكونتيس : بمفارقتي ولدي الحبيب ادفن زوجاً عزيزاً ثانياً.

برتران : وانا برحيلي يا سيدتي الوالدة، ابكي مجدداً موت ابي، غير اني مضطر الى الخضوع لأوامر السيد الجليل الذي أجدني من اتباعه وتحت رعايته.

لافو : ستلاقين في الملك زوجاً يا سيدتي، وانت يا سيدي ستجد اباً احاط الجميع دوماً بافضاله، ولا بد من ان يحفظ لكما ايضاً كل عطف وتقدير يجدر بكما ان لا تحرما نفسيكما منهما.

الكونتيس : هل من أمل في شفاء الملك ؟

لافو : لقد صرف اطباءَه يا سيدتي، بعد أن استنفدت علاجاتهم كل امل في استرداد صحته ولو على المدى الطويل.

الكونتيس : (تشير الى هيلانة) كان لهذه السيدة الشابة والد

يحزنني ذكر اسمه لأنه اتَّصف بالشهامة والعلم الذي كان يضفي طول العمر على الطبيعة البشرية ويبعد الموت عن الناس. ولو كان على قيد الحياة، انا واثقة بأنه كان شفى الملك من مرضه العضال.

لافو : ما هو اسم الشخص الذي تتكلمين عنه يا سيدتي ؟

الكونتيس : كان يدعى جيرار دي نربون، وكان رجلاً شهيراً في مهنته كطبيب يا مولاي.

لافو : اجل، في الحقيقة يا سيدتي، كان رجلاً متفوقاً : لان الملك تحدث عنه في وقت قريب باعجاب وأسف شديد على غيابه نظراً الى مهارته. وكم تمنى ان يكون حياً لأنه موقن بان العلم يتغلب على المرض.

برتران : ما هي العلة التي يشكو منها الملك يا مولاي ؟

لافو : يشكو من جفاف في العروق يا سيدي.

برتران : هذه اول مرة اسمع فيها بهذا المرض.

لافو : المسألة ليست كثيرة التعقيد. هل هذه السيدة ابنة جيرار دي نربون ؟

الكونتيس : أجل، ابنته الوحيدة يا مولاي. وقد اوكل امرها اليّ. وانا لي وطيد الامل بان تكون عند حسن ظني بتربيتها الممتازة، اذ ورثت خصالاً تزيد صفاتها الحميدة روعة، وتضيف الى مواهبها العديدة علو النفس وطيبة القلب. لأن المواهب اذا لم تقترن بالفضيلة تتحول الى نقائص مخزية. بينما اذا زيّنتها البراءة تزيدها وفاء ونبل أخلاق.

لافو : ثناؤك يا سيدتي يستدر دموع عرفانها بالجميل.

الكونتيس : هذاالماء المالح هو اول ما يمكن الفتاة ان تمزج به المديح الذي تلقاه. لأن ذكرى والدها لا تفارق ذهنها، فيستبدّ بها الحزن ويسبب لها شحوب خديها ويسرق منها زهو حياتها. كفى يا هيلانة، هيّا نذهب. يبدو عليك انك تستسلمين للكآبة بعكس ما ينبغي عليك.

هيلانة : اذا ظهرت على وجهي علامات الكدر فهذا يعني انه يعصر قلبي عصراً.

لافو : صدقيني، ان الحزن المعتدل دين علينا نحو الاموات، بينما الحزن الشديد هو عدوّ الاحياء.

هيلانة : اذا قاوم الاحياء آلامهم بتصميم، لا يلبث تفاقمها ان يقضي عليهم بسرعة.

لافو : كيف يجب ان نفهم ذلك ؟

برتران : انا ألتمس صلواتك، يا سيدتي.

الكونتيس : أباركك، يا برتران، واتمنى ان تكون خير خلف لابيك بفضائلك وافعالك وسلوكك في الحياة. لا بد لأصلك من ان يوازي علو اخلاقك، ولطيبة قلبك من ان تعادل رفيع محتدك. أحبب كل الناس يا ولدي، ولا تثق إلا بالنخبة منهم دون ان تسبب ضرراً لأحد. تسلح لمجابهة عدوك بالتحذير لا بالعنف، واترك خصمك دوماً تحت رحمة مقتضيات مصالحك. دع الناس تأخذ عليك السكوت ولا تفسح لهم مجال لومك على كثرة الكلام. إلتمس من السماء ان تمطرك بنعمها وأن تجود

عليك ببركاتها. الوداع. (للافو) هذا مولى حديث العهد فارجو أن تزوده بنصائحك الصالحة.

لافو : يمكنك ان تتكل على اصدق اخلاصي له.

الكونتيس : بركة السماء تشملك، يا برتران، الوداع. (تخرج).

برتران : (لهيلانة) اتمنى لك ان تتحقق جميع آمالك واحلامك. وان تكوني تعزية امي سيدتك التي آمل ان تحيطيها بأحنّ العناية والرعاية.

لافو : وداعاً ايتها السيدة الجميلة. لا تنسي ان تمجدي ذكرى والدك. (يخرج برتران ولافو).

هيلانة : (وحدها) لو اقتصر الامر على ذلك فقط لما فكرت بابي الذي تليق به احرّ دموعي إجلالاً لذكراه العزيزة. كيف كان ! لست ادري تماماً لاني اكاد انسى صورته لان مخيلتي لم تحفظ إلا رسم برتران. لا ليس لوجودي من مبرر اذا ابتعد عني برتران. يجمل بي ان اعشق نجماً متلألئاً ولا افكر بالاقتران به لأنه ارفع مني نسباً بما لا يقاس. واذا وصلت اليّ انواره فأحسّ بانها اشعاعات بعيدة لا يصعب عليّ الارتقاء الى اجوائها. وها هو املي بحبه ينقلب عذاباً اليماً. لان النعجة التي تطمح الى مشاركة الاسد في حياته محكوم عليها بالموت المحتم مختنقة بهموم هواها. كانت ابهج امانيّ ان اشاهده في كل ساعة بقربي، وإن جرحتني سيوف لحظه الفاتن، ومهما حزّت في قلبي خصال شعره الذهبي وكواني شوقي الى التمتع برؤية قسمات وجهه الصبوح. اما الآن

وقد غاب عن نظري، فان حسرتي تكاد تخنقني ولهفتي عليه تخترق كالسهام صدري المنقبض. بالله عليكم، اين هو ؟ ارشدوني الى مكانه.

(يدخل بارول)

هذا رجل من حاشيته، أحبه لأجله رغم اني اعرف جيداً انه كاذب حقير وغبي لئيم بكل معنى الكلمة وجبان خسيس. انما نقائصه هذه تلائم وضعه الى حد جعلها مقبولة. لان الفضيلة غريبة عن طبعه الفولاذي وإن ارتجف عطفه في وجه الرياح الشمالية الجليدية اذ غالباً ما يفوز غير المستحقين بامانيهم رغم حماقتهم وبلادتهم.

بارول : حماك الله ايتها الملكة الرائعة.

هيلانة : وانت ايضاً ايها الملك الوقور.

بارول : هل انا ملك ؟

هيلانة : وهل انا ملكة ؟

بارول : اراك تتأملين ربما بمسألة البتولية.

هيلانة : أجل، كما تفكر انت بامور الجندية. دعني اطرح عليك سؤالاً : يقال ان الرجل عدو البتولية. فكيف نستطيع ان نحتمي منه نحن النساء.

بارول : ابعدي عن دربه.

هيلانة : لكنه لا يكفّ عن مهاجمتنا. ومهما كانت المرأة جريئة وشجاعة في الدفاع عن نفسها تظل بتوليتها ضعيفة.

باروL : هذا غير صحيح، نظير ما ينسب الى الرجل انه متى وجد نفسه امامها يحتال عليها لينال منها وطره.

هيلانة : اطلب من السماء ان تحمي بتوليتنا من كل هجوم وانهيار. أوليس هناك من طرق عسكرية لوقايتنا من الرجال والفوز عليهم ؟

بارول : حين تُغلب البتولية على امرها تخور عزيمة الرجل. انما عندما تنفتح الثغرة التي تحدثها المرأة امامه، لا يلبث ان يعود الى الحصار والانتصار. ما دام لا سبيل في دولة الطبيعية البشرية لحماية البتولية، وما دام زوالها يمهد الى ازدهار الثروة الانسانية. ولن تُخلق اية عذراء اذا لم تنتزع هذه البتولية اولاً، والنسيج الذي تتكوّن منه الانوثة يشكل افضل حمىً للعذارى. اذ حين تزول البتولية يعوض عنها بعشرة من العذارى بينما المحافظة عليها خسارة فادحة لا يعقبها اي كسب. صدقيني، هذه معركة بارعة تقتضي دراية ومهارة.

هيلانة : اود ان اتريّث قليلاً ولو اضطررت الى قضاء العمر كله عذراء.

بارول : لا مجال للتوقف طويلاً عند هذه النقطة لانها تخالف ناموس طبيعة البشر. مع العلم ان الاصرار على دوام البتولية اهانة لا تغتفر موجهة الى والدتك بالذات. اذ ليس اصعب من الموت كعذراء. اما البتولية التي تنتهك فلا بد من دفنها على الطرقات العامة بعيداً عن كل احترام وتكريم لانها تكون متهمة بارتكاب جناية يائسة

بحق الطبيعة، ما دامت البتولية تولّد الدود نظير الجبنة التي تؤكل مع ذلك حتى آخرها، وتستهلك هكذا بسبب المبالغة في اشباع النهم. من جهة اخرى نرى البتولية كئيبة متعجرفة باطلة مفعمة بالكبرياء غارقة في احقر المعاصي ولو حمتها جميع الاسلحة. لا تتمسكي بها، لانها بعد عشرة اعوام تتضاءل عصمتها، وهذا ربح لا يستهان به يضاف الى رأس المال الذي يظل على حاله. فما عليك الا ان تجربي حظك.

هيلانة : ما العمل، يا مولاي، لكي أجود بها حسب تلميحك ؟

بارول : لعمري، لا سبيل الى خيار أولى من الذي قرّ رأيك عليه. اذ لا بد من اختيار يدعمه التفضيل. فهذه سلعة تفقد رونقها اذا ظلت محفوظة في مستودعها. وكلما زاد الحرص عليها كلما نقصت قيمتها. فما عليك إلا ان تمنحيها من يقدّرها ويرغب في الحصول عليها. لان البتولية تبدو كالعاشق العجوز الذي يلبس ما لا يليق بعمره، بينما حبيبته ترفل في اجمل حللها التي ان طال بها الزمن بطل زيّها نظير الليمونة التي ترمى بعد عصرها أو حين يدركها الذبول والعفن. فما اجمل الفواكه النضرة وما اقبحها عندما تفقد رونقها، وما اشبهها بالبتولية المسنة التي بمرور الزمن وبدون تذوّقها تصبح دميمة المظهر كريهة الطعم لا تصلح عندئذ إلا للرمي في سلة النفايات. فما رأيك بذلك ؟

هيلانة : انا لا ارغب الآن في التفريط ببتوليتي. هناك في البلاط

يسعى سيدك ان ينتقي بين الف من صاحباته من تصبح اماً وصديقة ويدعوها عصفوره الجميل وقائده وعدوه ودليله وملاكه وملكته ومرشدته وخائنته وحبيبته وكبرياءه وحقارته ووضاعته المتجبرة ولحنه النشاز وانسجامه الرخيم. هناك الف اسم واسم جذاب مشوق يترنّم به اله الحب الأعمى كوبيد. حينئذ يصبح... لا ادري ماذا يصبح... كان الله في عونه. فالبلاط مدرسة مفيدة تزوّد الرجل بالخبرة والهمة.

باورل : قل لي، من اية فئة من الرجال هو ؟

هيلانة : هو رجل اود له كل خير. لكن الشرّ...

باورل : اين الشر ؟

هيلانة : ارجو ان لا تتبلور امانيك، حتى لا تتيح لنا الظروف نحن المسكينات ان نكيل لأخصامنا ما يشعرهم بفعالية سلبيّتنا، ونعبّر عما يخامرنا من افكار لا تستحق اي تقدير.

يدخل احد الغلمان

الغلام : يا سيدي بارول، مولاي يستدعيك (يخرج الغلام).

بارول : وداعاً يا هيلانة الرقيقة. اذا لم تخنّي ذاكرتي، سأفكر فيك عندما اكون في البلاط.

هيلانة : يا سيدي بارول، انت تحت رعاية اي برج عطوف ولدت ؟

بارول : انا ولدت تحت رعاية برج إله الحرب.

هيلانة : هذا ما توقعته لك.

بارول : لماذا ؟
هيلانة : لان الحرب قد انهك قواك، ولا بد من ان تكون تابعاً لهذا البرج.
بارول : في تحكّمه وسيطرته.
هيلانة : بل بالحري في حركته الرجعية.
بارول : ماذا يدعوك الى هذا الظن ؟
هيلانة : مهارتك في التراجع.
بارول : للاستفادة من كل فرصة.
هيلانة : عندما نهرب يكون هذا لصالحنا، لا سيما اذا وجدنا سلامتنا في التخوف والحذر. على كل حال، هذا المزيج من الشجاعة والفزع الذي تشعر به هو فضيلة مجنّحة ستخدمك زمناً طويلاً.
بارول : انا الآن مثقل بالمشاغل، ولا يسعني ان اردّ عليك بقارص الكلام، فأعود عاشقاً مكتملاً، اذ ذاك تطمس دروسي كل علومك مهما استوعبت من نصائح خبير مثلي، وفهمت توجيهاتي. وإلا اضعت عمرك سدى في وجودٍ عقيم، وأطاح بك جهلك ورماك في شر المهالك. الوداع. عندما يتسنى لك وقت فراغ، عليك ان تتضرعي وتبتهلي. واذا لم تحصلي على مرادك، تذكري اصدقاءك وحاولي ان تلاقي بينهم زوجاً صالحاً تبادلينه نفس شعوره. وداعاً (يخرج).
هيلانة : غالباً ما نحوي في اعماقنا الدواء الذي نلتمسه من السماء لشفاء علتنا. فالمصير الذي يخبئه لنا القدر

يتركنا احراراً في اختيار مهنتنا. ولا تتأخر مشاريعنا إلا عندما نظل حيارى جامدين بدون حراك. لعمري، ما هي القدرة التي ترفع حبي هكذا عالياً، وتتيح لي ان اشبع نظري من بهاء طلعة حبيبي ؟ كثيراً ما نرى ابعد الاشخاص عن الخطر، نظير اهل الهوى، يضمهم الشوق في عناق منسجم أصيل. فالامور الرائعة مستحيلة في منظار العرف العام على من يهاب الصعاب ويتصور الامر البعيد المنال لا سبيل للمرء الى الوصول اليه، مهما صال وجال. فمن هي التي بعد كل هذه الجهود لاثبات اهليتها، لم تنجح في ارضاء حبيبها ؟ اما مرض الملك فقد يصعب في مشروعي على ما ارجوه له من شفاء عاجل ، انما تصميمي لا رجوع عنه ابداً وانا واثقة كل الثقة بان التوفيق سيكون حليفي. (تخرج).

المشهد الثاني

في باريس داخل القصر الملكي.

تسمع موسيقى. يدخل ملك فرنسا بيده رسائل ويتبعه سادة ووجهاء في خدمته.

الملك : ها هم اهالي فلورنسا واهالي سيانا قد حاربو بإمكانيات متساوية، ولا يزالون يشنّون الى الآن حرباً ضروساً.

السيد الاول : هذا ما يتداوله الناس في قول، يا مولاي.

الملك : (وهو غير بعيد عن الواقع) ها قد بَلَغنا تثبيت هذا النبأ

في رسالة من ابن عمي النمساوي الذي ينبهني الى قرب التماس اهالي فلورنسا منا العون السريع. وهذا الصديق العزيز يلبي طلباتهم وعلى ما يبدو ينتظر منا الرفض.

السيد الاول : لقد خبرت يا صاحب الجلالة مراراً اخلاصه وحكمته. وهذا يستحق من قبلك كل تقدير.

الملك : اجل، استجاب طلبي وسلمهم اسلحة. بينما رفضت فلورنسا قبلاً ان تقدم لك طلبك. على كل حال بين وجهائنا من يودّ أن يخدم في توسكانا. وهم يستطيعون ان ينحازوا الى اية جهة ترضي اهواءهم.

السيد الثاني : من هنا، علينا ان نستخلص درساً يستفيد منه نبلاؤنا الذين يماطلون في استغلال الرغبات والظروف.

الملك : من القادم إلينا ؟ (يدخل برتران ولافو وبارول).

السيد الاول : يا مولاي الكريم، هوذا برتران الشاب كونت روسيّون.

الملك : (لبرتران) ايها الفتى انت تشبه اباك كل الشبه. فطبيعته الحرّة واخلاصه النزيه قد انتقلا الى شخصك بالوراثة. وأملي ان تستمدّ منه ايضاً جميع صفاته الحميدة. اهلاً بك في باريس.

برتران : اقدم لك جزيل شكري وولائي، يا مولاي.

الملك : ليتني املك تمام عافيتي كما كنت في عهد ابيك الذي ربطتني به رفقة السلاح في ربيع عمرنا. وكنا في تلك الايام اشجع الفرسان لا نهاب المنايا. لكن الشيخوخة داهمتني وانهكت عزيمتي. كم يسرني التحدث عن والدك ! لاننا عندما كنا في عزّ صبانا كان جميع رجال

البلاط يحسدوننا ويمازحوننا وكنا لا نتورع عن التنكيت بدورنا. وكان والدك الشهم لا يفوته شيء من المروءة والمجد، لا سيما حين يتحداه احد المغرورين. فيثبت جدارته وتفوُّقه ويناقش عند اللزوم، ويلجأ الى سيفه اذا اقتضى الامر. وكان لشدة كرمه يحسن معاملة رجاله ويكرمهم ويفتخر بهم ولا يترك مجالاً لأي انتقاد او تطاول. هكذا كان ابوك وكما كنت انا، مثالاً للشرف، فربحنا ثقة الجميع وصداقتهم الخالصة. ولم يجرؤ احد حتى الآن على الخروج على هذا المنهج الخيّر.

برتران : يا مولاي، ارى ان ذكراه مطبوعة في ذهن سيادتك اكثر مما هي على صفحات التاريخ. وثناءك على بطولته لا يقلّ عما تتمتع به جلالتك من هيبة ووقار.

الملك : انا آسف لفراقنا، كما كان من عادته ان يقول، كأن صوته لا يزال يزن في اذني. ولم يكن يلقي كلامه جزافاً بل يتلفظ به بطريقة تجعل وقعه مأنوساً على الاذن حيث يرسخ وينمو ويثمر. وكم مرة سمعته يقول : اود أن أموت لاني لا احب ان اكون مصباحاً خالياً من الزيت لا اضيء للاجيال التي خبا ذكاؤها ولم تعد آمالها تتعدى اناقة الملابس وبهرجة المظاهر التي تتبدد قبل ان يتغيّر زيّ الثياب. هكذا كانت امانيه وآمالي انا ايضاً. لكنني الآن، وقد ثقلت على كاهلي السنون، لم اعد اجني لا شمعاً ولا عسلاً من الازهار لخليّتي، وآن لي ان ارحل

لأفسح المجال لغيري من العاملين.

السيد الثاني : انت محبوب يا مولاي، وحتى اخصامك سيتحسرون على غيابك بعد العمر الطويل.

الملك : انا اعرف اني لا املأ مكاني. ارجوك ايها الكونت ان تقول لي منذ كم سنة مات طبيب والدك، وهو في أوج الشهرة ؟

برتران : منذ ستة اشهر يا مولاي.

الملك : لو كان على قيد الحياة لحاولت الاستفادة من خبرته. ارجوك ان تمسك بيدي. اما معظم اطبائي فألاحظ انهم يستنفدون صحتي بتجريب علاجاتهم في جسمي المرهق، ومن الآن وصاعداً يستطيعون ان يحاولوا ويجربوا كما يشاؤون. اهلاً بك ايها الكونت، فانت بمقام ولدي.

برتران : اشكر جلالتك على هذه الثقة الغالية. (يخرجان. وتصدح الموسيقى).

المشهد الثالث

في قصر كونت روسيّون.

تدخل الكونتيس ووكيل الصرف والمهرج.

الكونتيس : الآن كلي آذان صاغية لسماعك. ماذا قلت عن هذه السيدة الصبيّة ؟

وكيل الصرف : اود ان تتذكري دائماً يا سيدتي، ما اسديت لك من خدمات جليلة، وان تضيفيها في سجلي الى اعمالي السابقة. لانبا بيدنا كثيراً ما نجرح كبرياءنا ونسوّد صفحة سلوكنا.

الكونتيس : (تلتفت الى المهرج) ماذا يصنع هذا اللعين هنا ؟ اذهب ايها الغبي لأن ما قُدّم بحقك من الشكاوى لا تصدق ولا تشرف. وانا ادرى الناس بصفاتك وبافعالك التي لا ترفع الرأس نظراً الى تصرفاتك الدنيئة.

المهرج : انت تعرفين جيداً يا سيدتي، اني رجل بائس مسكين.

الكونتيس : لا اجهل ذلك.

المهرج : ليس اذاً من صالحي يا سيدي كما هو معلوم، ان اكون فقيراً، مع ان اغلب الاثرياء لا ينعمون بحال افضل من حالي. انما ان سمحت يا صاحبة السموّ سنسعى انا والمدعو ايزابو الى تحقيق امانينا.

الكونتيس : يسعك اذاً ان تصبح متسوّلاً.

المهرج : اجل، فقط لألتمس اذنك في معالجة هذه القضية.

الكونتيس : اية قضية ؟

المهرج : قضيتي وقضية ايزابو. فالخدمة ليست وراثة، وانا على يقين باني لن انال ابداً رضى الله قبل ان انجب أولاداً لان الاطفال بركة كما يقال.

الكونتيس : اخبرني، ما الداعي الى زواجك ؟

المهرج : جسمي يفرضه علي يا سيدتي. فانا أنقاد الى جسدي، وعلى المرء ان يسير الى حيث يجره ابليس.

الكونتيس : هل هذه هي كل اسبابك يا صديقي ؟
المهرج : في الحقيقة يا سيدتي، لدي اسباب اخرى تقوية.
الكونتيس : هل من الممكن ان نعرفها ؟
المهرج : كنت مثقلاً بالذنوب يا سيدتي، نظيرك ونظير جميع الناس المخلوقين من لحم ودم، وانا اود الزواج لأتوب.
الكونتيس : الزواج لا الشر.
المهرج : انا لا اصدقاء لي، وآمل ان اعوض عن هذا النقص بزوجة صالحة.

الكونتيس : امرك غريب، لأن هؤلاء الاصدقاء هم بالحري اعداء.

المهرج : انت تحكمين على الناس بدون تبصر في كنه الامور يا مولاتي. ثقي بان هؤلاء من اعزّ الاصدقاء المحبّين، ولانهم اغبياء يفعلون ما يضنيني من الاعمال. فمن يحرث ارضي يوفر التعب على بهائمي ويدعني اجني غلتي واذا خانني احد منهم استغلّه كأنه دابتي. ومن يسلّي زوجتي يوفر علي عناء ارضائها. ومن يؤمن لي كل هذه الحاجات يحبني ويكنّ لي صداقة خالصة. وهكذا من يعانق امرأتي يثبت انه من اغلى الاصحاب. ولو قنع الناس بما هم حاصلون عليه لما بقي من خوف في حقل الزواج. في الحقيقة ارى الشاب المرح يشرب والمتدين المتزمت يختلف عن سائر الاتقياء المتشابهين. ما داموا يستطيعون ان يشبكو قرونهم بقرون سائر اوعال القطيع.

الكونتيس : لن تقلع عن النميمة وسيظل لسانك لاذعاً كالسوط، يا لعين.

المهرج : انا لست نبياً يا سيدتي، انما أذيع الحقيقة من اقصر السبل (يتمتم) :

دأبي ترديد انشودة
على كل لسان مسرودة
لان الزواج قسمة ونصيب
وحسد الناس امر عجيب.

الكونتيس : اخرج من هنا يا سيدي. اودّ ان اقول لك في الحال كلمتين.

وكيل الصرف : اتريدين يا سيدتي ان تطلبي منه استدعاء هيلانة، لاني اريد أن اكلمك عنها ؟

الكونتيس : يا مغفل قل لمرافقتي هيلانة ان تأتي، لأني اريد ان اتحدث اليها.

المهرج : من تقصدين بهذا الاسم يا سيدتي
ذات الوجه الصبوح موضوع مودتي ؟
كان إسمها سبباً في حرب طروادة
اذ احبها الفتى باريس بلا هوادة
وكانت فرحة الملك بريام
بما اصدره لاجلها من أحكام
اذ قدّر فيها الكرم والحنان
منذ أطلّ عليها حبيبها الولهان
وهي الصبية الصالحة بين عشرة

تطيب بجوار حسنها العِشرة.

الكونتيس : ماذا تقول يا غبي ؟ انت تشوّه الانشودة. اهي حقاً صالحة بين عشرات النساء.

المهرج : بقولي هذا انا بالعكس ارفع شأن المغنية لانها فعلاً افضل الفتيات. وانا اتمنى نظيرها لجميع الشبان. اما انا فلن اتذمر إن حصلت على واحدة مثلها، إن كان الامر منوطاً بي. فواحدة من عشرة إن كانت حقاً صالحة يغمر وجودها اي رجل بالسعادة والهناء. لأنها كالشهاب تمر مسرعة في سمائه، وان اهتزت الأرض لانوثتها يكون نصيبها افضل الهبات. اذ من السهل على الرجل ان يقتلع قلبه من مكانه لكي يحظى بامرأة فاضلة تسعد ايامه.

الكونتيس : الا تريد ان تخرج يا مغفل، وان تنفذ حالاً ما أمرتك به ؟

المهرج : مشيئة الله ان يطيع الرجل اوامر زوجته بدون ان يرتكب اي شر. فالشرف عندي وان لم اكن متزمتاً يأبى عليّ ان آتي اي محظور. فهي تلبس ثوب التواضع الاسود وتخفي قلباً عطوفاً نقياً ناصع البياض. انا ذاهب لأنادي هيلانة كما ترغبين. (يخرج المهرج).

الكونتيس : انا مصغية.

وكيل الصرف : ان اعرف يا سيدتي انك تحبين كثيراً مرافقتك هيلانة.

الكونتيس : اجل، لأن والدها اوصاني بها كوديعة غالية. ولو لم تكن موضوع هذه التوصية لكانت حازت مع ذلك على ما

تستحقه من محبة ورعاية لان الجميع، نظراً الى كرم اخلاقها مستعدون لمنحها اكثر مما تطلب بسخاء ودون تحفظ.

وكيل الصرف : مكثت بقربها يا سيدتي منذ لحظة، مدة اطول مما هي تتمنى. وسمعتها تخاطب نفسها بهذه اللهجة بدون ان تظن طبعاً اني اسمعها تردد لنفسها هذه الافكار الغريبة بصوت عالٍ، وفهمت بصورة غير مباشرة انها تحب ولدك، اذ قالت : « شاء حظي ان يجعل بيني وبينه هذه الفوارق العائلية، والحب لا يخضع للنظام ولا يعترف بالنفوذ والجاه والمال ولا بتفاوت المستوى بين المحبّين. فديانا ليست خيرة العذارى، لأنها فوجئت واستسلمت بدون شرط ». هذا ما كانت تقوله بمرارة اليمة وبشكل لم يسبق لعذراء ان باحت به امامي. فظننت من واجبي ان اعلمك بالامر سريعاً لدرء اي خطر او شر يمكن ان يطرأ وانت راغبة في الاطلاع على ما يدور في خلدها.

الكونتيس : تصرفك لا اشرف منه. احفظ هذا في قلبك فان ظنوناً عديدة كانت تساورني وكنت اتأرجح بين الشك واليقين. ارجوك ان تكتم هذا السر في اعماق صدرك، وانا اشكرك على غيرتك وشهامتك. سنتحدث في هذه القضية عن قريب. (يخرج وكيل الصرف). هكذا كان حالي عندما كنت صبية. وهذا امر طبيعي لان الشكوك لا ينفصل عن ورود الشباب في فورة العنفوان،

بل هو ميزة الطبيعة الحقة المتحكمة بالهيام والشوق المتبادل المتجاوب بين حنايا الضلوع. ها هي تذكارات ماضي حياتي تعيد الى ذهني نفس المشاهد والاخطاء، وهي ليست وقفاً عليّ وحدي. فان نظراتها التائهة تنبىء بما يعصف في قلبها من وجد وحنين.

(تدخل هيلانة)

هيلانة : ماذا تريدين يا مولاتي ؟

الكونتيس : انت تعلمين يا هيلانة ان احبك كوالدتك.

هيلانة : اجل يا سيدتي الكريمة.

الكونتيس : بل انا بمقام امك. ولماذا لا اكون كوالدتك ؟ لاحظت عليك بعض الارتعاش عندما كلمتك في هذا الموضوع، كأن افعى لدغتك. فلماذا تجعلك لفظة الام ترتجفين هكذا ؟ اكرر عليك اني اعزك مثل امك واعتبرك كأنك ابنتي وقطعة من كبدي. وما اكثر الحالات التي يكون فيها الربيب اغلى من الولد الشرعي، وإن كان من صلب غريب. انت لم تسببي لي آلام مخاض الامومة وسهر الليالي، مع ذلك اكنّ لك حنو الوالدة. سامحني الله. هل من داع لاي تحفظ بين الام وابنتها ؟ ماذا يستدر دموعك هكذا ؟ ولحظك شبيه بالنرجس الزاهي الالوان. ايزعجك ان اعدّك كابنتي ؟

هيلانة : لكني في الواقع لست ابنتك.

الكونتيس : انا اعتبر نفسي كوالدتك.

هيلانة : ارجوك يا سيدتي، ان لا تنسي ان كونت روسيّون لا

يمكن ان يكون اخي. فانا من اصل وضيع وهو عريق النسب. اهلي ليسوا نبلاء، بينما جميع ذويه من الاشراف: هو سيدي العزيز، وانا خادمته المطيعة سأظل امينة على عهده، دون ان يكون شقيقي.

الكونتيس : ولا ان اكون انا امك.

هيلانة : انت بمقام والدتي يا سيدتي، انما لا سمح الله ان يكون سيدي ابنك شقيقي. ولا ان تكن انت امي الحقيقية. ولو كنت حقاً والدتنا نحن الاثنين، لما كانت سعادتي اعظم، تماماً كما لو كنت انا اخته. ليت هناك وسيلة لان اكون ابنتك بدون ان يكون هو اخي.

الكونتيس : هذا ممكن فقط، يا هيلانة، اذا اصبحت كنّتي. اسأل الله ان لا يبعد عنك قبول هذه الفكرة. فاسماء البنات والامهات لن يؤثر على مستواك. اولا تزال وجنتاك شاحبتين لقد خامرتني الظنون حول مودتك، وفهمت الآن سر ميلك الى العزلة والتأمل واكتشفت مصدر دموعك السخية. وايقنت بانك بدون شك تهوين ولدي وهذا ما يدفعك الى اخفاء شعورك وتمويه هذا الواقع، ونكران ما تضمرينه له من حب عميق. فاصدقيني الحقيقة بدون تكتم. ها هي خدودك تعلن هذا الحب الذي اراه بكل وضوح في حركاتك وفي تعابيرك. لان الحياء وحده يمنع لسانك عن البوح بسرك الجلي. تكلمي، قولي لي ان هذا صحيح. ولا تخفي عني انك تحبينه، بل اكدي لي اني غير مخطئة في هذا

الموضوع. على كل حال اطلب منك ان تبيّني لي رغبتك وانا اتعهد لك بان اساعدك على نيل مرامك.

هيلانة : سامحيني يا سيدتي الكريمة.

الكونتيس : هل حقاً تحبين ولدي ؟

هيلانة : ارجوك ان تسامحيني، يا سيدتي النبيلة.

الكونتيس : هل تحبين ابني ؟

هيلانة : الا تحبينه انت، يا سيدتي ؟

الكونتيس : لا تواربي في كلامك. ان حبي له لا يضاهيه اي حب على وجه الارض لاني امه. هيا انبئيني عن شغف قلبك لان اضطرابك يشير الى تعلقك به.

هيلانة : (وهي تجثو) لا يسعني إلا ان اعترف هنا راكعة امامك وامام السماء باني احب ابنك. كان اهلي فقراء، لكنهم شرفاء. وهكذا حبي له شريف. فلا تحنقي، فإن حبي لابنك لن يسفر عن اي شر. وانا لا ألاحقه لأستولي عليه ولن ارضى به زوجاً قبل ان استحق محبته. ربما انا احب عبثاً وآمل بما قد لا يتحقق يوماً. هذا لا يهم فاني ساثابر على محبته مهما كابدت من قلق وتضحية في سبيله. فانا كالهندي الذي يعبد الشمس في ديانته الخاطئة، ويلتمس ان ترسل اليه اشعتها التي لا يراها إلا حين تضيء عليه. ارجو يا سيدتي الكريمة ان لا تعكسي حبي حقداً عليّ لان شعوري يلتقي بعاطفتك نحو من اهوى. وانت ذاتك يا من يؤكد عطف شيخوختك الجليلة فضيلة شبابي، اذا احسست بان قلبي

يضطرم بمثل هذه الشعلة المقدسة تكونين قد لمست في آن واحد صفاء رغبتي وحنو اشواقي. فالالهة ديانا كانت هي ايضاً عاشقة. اتوسل اليك ان ترحمي ضعفي الذي لا يقوى على منعي من بث مودتي الشخص الذي انا واثقة بانه صعب المنال بالنسبة اليّ نظير من يبحث عن حل احجية عسير حلها.

الكونتيس : او لم تتكلمي بصراحة منذ ايام قليلة عن رغبتك في الذهاب الى باريس ؟

هيلانة : نعم يا سيدتي.

الكونتيس : لماذا تريدين الذهاب الى باريس ؟ قولي لي الحقيقة.

هيلانة : اقسم بالنعمة التي تولينها اياي اني سأبوح لك بها. انت تعرفين ان والدي ترك لي واوصاني بوصفات عجيبة مجرّبة استخلصها من مطالعاته واختباراته في الحياة. وألحّ علي قبل ان يموت بان احتفظ بسر كتاباته هذه مهما كلفني الامر، نظراً الى قيمتها وفعاليّتها التي تفوق بالحقيقة ما يتوقعه العاقل من هذه الرموز. وتضم من جملة العلاجات دواء لا يخطيء لمعالجة الامراض المستعصية نظير علة الملك التي نفض الاطباء ايديهم من شفائها.

الكونتيس : هل هذا هو السبب الحقيقي لذهابك الى باريس ؟ تكلمي.

هيلانة : مولاي ابنك هو الذي حملني على التفكير بذلك. لان

الاطباء والملك نفسه أقلعوا عن المحاولات العقيمة المكررة بدون جدوى.

الكونتيس : لكن يا هيلانة اذا عرضت على الملك مساعدتك هذه، هل يقبل بها يا ترى ؟ واية ثقة يوحي اليه اقتراح صبية جاهلة، مثلك بينما مجموع الاطباء قد نفدت حيلهم وتركوه بين انياب الخطر الذي يتهدده ؟

هيلانة : هذا الشعور يتملكني ويفوق علم ابي الذي برع في مهنته وأوصاني بهذه الوصفة العجيبة وكلي امل بان تفضي الى النتيجة المتوخاة يا سيدتي. فارجوك ان تسمحي لي بالقيام بهذه المحاولة وانا اتعهد بتكريس حياتي لشفاء جلالته في هذه الحالة الحرجة.

الكونتيس : هل تؤمنين بفعاليتها ؟

هيلانة : انا واثقة من النجاح واضمنه يا سيدتي.

الكونتيس : فاذا اكرر لك يا هيلانة خالص مودتي واستعدادي لمساعدتك على تنفيذ خطتك واحمسك على الذهاب باقصى السرعة كي تسعي لدى المسؤولين في البلاط لعمل ما يلزم. وانا سأبقى هنا ألتمس لك بركة الله وتوفيقه. فاذهبي منذ فجر الغد وكوني على يقين باني ادعم محاولتك من كل قلبي راجية لك النجاح وللملك الشفاء العاجل (تخرجان).

الفصل الثاني

المشهد الاول

في باريس داخل القصر الملكي

تصدح الموسيقى. يدخل الملك ويتبعه عدد كبير من السادة الشبان ذاهبين الى الحرب في فلورنسا، ثم يدخل برتران وبارول وبعض الخدم.

الملك : وداعاً ايها السادة الفتيان. لا تغفلوا عن أصول الحرب. وداعاً. ولا تنسوا نصيحتي بل استفيدوا منه بقدر استطاعتكم.

السيد الاول : املي يا مولاي، ان نعود مظفّرين، وان نجدك يا صاحب الجلالة بكامل صحتك.

الملك : لا، لا. هذا مستحيل. مع ذلك، لا اريد أن اعترف بان قلبي لن يشفى من العلة التي تتلف حياتي. الوداع ايها السادة الشبان. إن عشت او متّ، ارجو ان تكونوا ابناء فرنسا البررة الكرماء، وان تنزلوا بايطاليا الفاسقة ما تستحقه من عقاب وويلات لانها كانت سبب انحطاط الامبراطورية الرومانية، وانتم لا تلتمسون المجد التماساً بل تفرضونه فرضاً. وعندما يعود اشجع الكشّافة عليكم

ان تحصلوا انتم على ما تبحثون عنه من شهرة وسمعة طيبة. مرة أخرى اقول لكم الوداع.

السيد الثاني : نتمنى لك الصحة التامة، يا صاحب الجلالة.

الملك : لا تثقوا بفتيات ايطاليا، بل تجنبوهن لانهن يدّعين اننا نحن الفرنسيين لا يسعنا ان نرفض لهن طلباً. فحذار من أن يأسرنكم بما يعرضنه عليكم من خدمات.

السيدان معاً : قلوبنا لن تحيد عن نصائحك.

الملك : وداعاً (لأحد السادة) ارجوك ان تساعدني (يتمدد الملك على سريره للاستراحة).

السيد الاول : (لبرتران) يا سيدي العزيز، لا يجمل بي ان اتركك هكذا ورائي.

بارول : ليس الذنب ذنبه، بل ذنب الشرارة...

السيد الثاني : ما هذه الصحبة الرائعة.

بارول : انا مسرور جداً بمشاهدتي هؤلاء المحاربين.

برتران : انا باقٍ بانتظار صدور الاوامر، ولا يستطيع احد ان يحجزني بقوله : سيأتي دورك في السنة القادمة لانك صغير السن ايها الفتى.

بارول : اذا كان قلبك يغريك بالمغامرة فانسحب بشجاعة.

برتران : علي ان ألازم مكاني هنا. فانا محكوم عليّ ان اسير على البلاط المالس الى ان لا يبقى من مجد باهر في اشهار سيف متشوق الى القتال. انا افضّل ان انسحب.

السيد الاول : وهذا سيكون فراراً شريفاً.

بارول : لا تتردد في اللجوء اليه، ايها الكونت.

السيد الثاني : هيا، سأكون شريكك. الوداع.

برتران : انا متمسك بالبقاء معك، وفراقك سهم اليم يخترق فؤادي.

السيد الاول : (لبارول) وداعاً ايها الهمام.

السيد الثاني : كلامك رقيق، يا سيدي بارول.

بارول : ايها الأبطال النبلاء، جميعنا اخوة في السلاح، وسيوفنا براقة بتّارة. ستجدون في فيلق جماعة « سبيني » قائداً يدعى سبوريو، جرحه سمة حزينة على خده الايسر، احدثه في وجهه حد سيفي المرهف. قل له اني لا ازال على قيد الحياة، واني اخبرتكم بهذا الحادث الطريف.

السيد الثاني : طبعاً ايها الزعيم النبيل.

بارول : كونوا اعز اولاد اله الحرب وبرهنوا على جدارتكم وشجاعتكم (يخرج السادة. لبرتران) ماذا تودّ ان تفعل ؟

برتران : انا باقٍ هنا. لان الملك...

بارول : لا بد من ان تخصّ هؤلاء النبلاء بحفاوة بالغة. لانك لزمت جواً من الوداع بارد جداً. الرجاء ان تظهر لهم حرارة اكثر، ما داموا لا يعرفون اللهجة اللطيفة، بل يتصرفون ويتكلمون حسب التيار السائد. وعندما يضبط الشيطان وقع مسيرتهم، لا يترددون في الجري وراءه. الحق بهم وودّعهم بأحمس العبارات.

برتران : اجل، سأتبع تعليماتك.

بارول : لا تنسَ أنهم رفاق طيبون، وعلى ما يبدو، هم رجال

سلاح مزودين بسيوف مرهفة الحد. (يخرج برتران وبارول).

(يدخل لافو ويرتمي على اقدام الملك)

لافو : سامحني يا مولاي، وغضّ الطرف عن رسالتي.

الملك : نعم بشرط ان تنهض.

لافو : (ينهض) انت ترى الآن رجلاً دفع سلفاً ثمن العفو عنه. اريد يا مولاي ان اركع امامك لطلب السماح مني فتمنحني اياه فوراً.

الملك : انا اريد ذلك ايضاً. لكن بعد ان أثني على إخلاصك. عندئذ تطلب العفو.

لافو : ضربتك جاءت الى جانب الهدف، يا مولاي الجليل. ها هوذا سؤالي : هل تريد ان تبرأ ممّا تشكوه من علة ؟

الملك : كلا.

لافو : انت تريد ان تأكل عنباً يا مولاي كما يفعل الثعلب. مع ذلك هذه حجج رائعة تتذرع بها عبثاً ان كنت حقاً تريد الوصول الى مبتغاك. شاهدت اليوم طبيباً بارعاً يبعث الروح في الحجر، ويحرك جمود الصخر الاصم ويرقص الحزانى على اطرب الانغام. فلمسة منه تكفي لتقيم الميت من قبره. ماذا اقول ؟ تكفي لجعل الجاهل يبادر الى القلم ويخط أروع رسائل الغرام.

الملك : تكلّم.

لافو : هو طبيب ماهر يا مولاي، بل طبيبة بارعة. فهل تريد أن تستقبلها ؟ اقسم لك بشرفي، ان تفكيري سليم بعيد عن

المزاح. واؤكد لك اني حدثت المرأة التي ادهشتني بانوثتها وصباها ومشروعها وحكمتها وتصميمها. فلمت ذاتي على ضعف اندفاعي. هل تريد ان تراها يا مولاي؟ انها ترغب في مقابلتك لتعرض عليك خطتها في المعالجة. اجل اضحك واهزأ بي كما يحلو لك.

الملك : أدخل، يا عزيزي لافو، هذه الدرّة الفريدة لكي اتمكن من مشاطرتك اعجابك وازالة دهشتي.

لافو : طبعاً سأعرف رأيك عند انتهاء هذه الزيارة. (يخرج)

الملك : من طبعه ان يطيل المقدمات بدون الوصول الى نتيجة حاسمة.

(يدخل لافو ومعه هيلانة).

لافو : هيا ادخلي.

الملك : ارى الاستعجال يحملك على اجنحة المغامرة.

لافو : هيا ادخلي بغير وجل، فجلالته بانتظارك وابسطي له ما لديك من عرض. تبدو عليك سحنة المغامرين. انما جلالة الملك لا يخشى امثالك ابداً. انا واثق بحسن نيتك، ولا يقلقني ان تركتكما منفردين. الى اللقاء. (يخرج).

الملك : ماذا تريدين مني ايتها الحسناء ؟

هيلانة : انا يا مولاي ابنة جيرار دي نربون الذي كان بارعاً في مهنته كطبيب.

الملك : اجل، عرفته.

هيلانة : لن اشيد اذاً بمزاياه، ما دمت تذكره. هذا يكفي بينما

هو على فراش النزاع سلمني عدة وصفات، منها واحدة هي ثمرة خبرته الطويلة وعمله الناجح في اختباراته الواسعة، وقد اوصاني بالاحتفاظ بها بعناية نظير عين ثالثة أغلى من عيني الاثنين. وهكذا فعلت. واليوم حين علمت بان جلالتك مصاب بعارض مشؤوم، مداواته ممكنة بهذا العلاج الفعال الذي تركه لي والدي رحمه الله، جئت اقدمه مع صدق اخلاصي وخضوعي المتواضع.

الملك : اشكرك ايتها الفتاة. انما لا يسعني ان اؤمن بمثل هذا الشفاء، حينما قطع منه الأمل ابرع اطبائنا مجتمعين، وقر رأيهم على ان فنهم رغم كل الجهود عاجز عن شفاء حالتي المرضية المستعصية. لا بد لي من ان اتخطى هذا الحكم واتجاوز ثقتي بهم وألجأ الى علاجك ولو كان فيه بعض المخاطرة ضارباً بحرصي عرض الحائط لأغفل الحكمة التي عرفت بها واقبل معالجتي بهذا الدواء غير المعقول في علة أعتبرها لا تقبل الشفاء حسب تأكيد الاطباء.

هيلانة : انا لا اريد ان افرض عليك خدماتي بل التمس بتواضع من كرمك الملكي ان تشملني برضاك. ويكفيني كمكافأة على اتعابي ان اقوم بواجبي نحو جلالتك.

الملك : لا يسعني ان امنحك اقل من ذلك، اذا لم ارد أن اكون من ناكري الجميل. وبما انك شئت ان تسعفيني، فاقبلي اذاً خالص شكري. انا اعرف جيداً مقدار احترامك

اياي، واعلم اي خطر اواجه بدون ان اقوى على درئه.

هيلانة : اي ضرر في تجربة ما استطيع عمله بعد إخفاق كل علاج ؟ ان من يقوم بالاعمال العظيمة، غالباً ما يحققها بابسط السبل والوسائل. هكذا يرينا الكتاب المقدس مفعول حكمة الاطفال عندما يعجز الحكماء كما لو كانوا اولاداً قاصرين. فالأنهر الكبيرة تغذيها الينابيع والجداول الصغيرة، والبحار الواسعة تستقي مياهها من مجموع الانهار التي لا توازيها ضخامة. وغالباً ما تخطىء النبوءة الهدف وان حفلت بأجمل الوعود. واحياناً تبلغ الغاية رغم ضعف الآمال وانهيارها الى حضيض القنوط.

الملك : علي ان لا اصغي اليك. وداعاً ايتها الفتاة الأمينة. اخشى ان لا يثمر جهدك بالفائدة المرجوة التي يترتب علي ان اكافئك لقاءها ؟ لان العروض غير المقبولة لا اجر لها سوى الشكر.

هيلانة : ارجوك ان لا تضيع استحقاق المرء سدىً. اذ لا احد يعرف كل شيء مثلي انا، لاني احكم على الامور حسب ظواهرها، واظن ان الادعاء من طرفي لا يعادل اشتراك السماء في اعمال البشر. ارجوك يا مولاي ان توافق على اجراء محاولتي ولا تتكل على عملي بل على قدرة الله. انا لست دجالة اتعاطى ما لا سبيل الى انجازه، لكي اعلم، وانا على اتم اليقين، ان وصفتي ليست عاجزة وان داءك غير مستعصي الشفاء.

الملك : هل انت هكذا واثقة من النتيجة ؟ كم من الوقت يقتضي علاجي حتى استرد عافيتي ؟

هيلانة : بعون الله، آمل قبل ان تغيب الشمس مرتين، وقبل ان يطفىء الناس مصابيحهم مرتين، ان يزول من جسمك كل ما يزعجك من سقم فتعود اليك صحتك وتتعافى كما كنت في الماضي وتتخلص نهائياً من كل مرض.

الملك : بماذا تضمنين فعالية عرضك هذا، وعلام تستندين في قناعتك هكذا ايتها الفتاة ؟

هيلانة : لا على امل في غير موضعه، ولا على فضيلة وقحة تتذرع بها عاهرة فاجرة تغمغم اناشيد بذيئة مشبوهة. انا اقبل، اذا اخفقت، ان يتلوث شرف بتوليتي، وان تنزل بي اقصى العقوبات وتختتم ايامي باشنع العذابات.

الملك : يخيل الي ان وحياً سماوياً يتكلم بلسانك واسمع نبرته المجلجلة بصوتك اللطيف. وأظن ان ما يرفضه العرف كأنه غير قابل التحقيق، يستبدل بتدبير آخر نجاحه ممكن. حياتك جوهرة ثمينة لان كل الخيرات التي يسعنا ان نقتنيها في هذه الدنيا اراها مجتمعة في شخصك الكريم : من شباب وجمال وحكمة وشجاعة وفضيلة وكل المواهب السعيدة التي تؤدي الى الهناء في ربيع العمر. فلكي تغامري انت بجميع هذه القيم لا بد من ان تعتمدي اما على علم واسع أو على يأس رهيب. ايتها الطبيبة الفاتنة اريد ان اجرب العلاج الذي تأتينني به والذي سيوديك الى المهالك اذا انا فارقت الحياة.

هيلانة : إن تجاوزت المهلة المحددة، وفشلت في تحقيق ما اصبو اليه، ليحصدني منجل الموت مصحوبة باللعنات لاني استحق هذه النهاية. وان لم يتم الشفاء يكون الاعدام حتماً جزائي. لكن اذا ابرأتك فبماذا تعدني ؟

الملك : اطلبي ما تشائين.

هيلانة : هل تلبي فعلاً طلبي ؟

الملك : بدون اي شك. اقسم بصولجاني وبأملي في الجنة.

هيلانة : اذاً ستمنحني بارادتك الملكية زوجاً خاضعاً لسلطانك، سأدلك عليه. لاني لا اجسر على التفكير باختياره من الاسرة الملكية الفرنسية. ما دام اسمي الوضيع الاصل لا ينتمي الى اي منبت رفيع الشأن. فانا اريد احد اتباعك وأجرؤ على التماسه منك نظراً الى مقدرتك على تلبية رجائي حسب وعدك.

الملك : هذه يدي تعاهدك. فاذا اتممت ما تقترحينه عليّ سأحقق رغبتك حالاً فما بقي إلا ان تعيّني الوقت. لاني قررت ان اكون المريض الخاضع لعلاجك وانا متكل على الله وعلى مهارتك. كان على ان اطرح عليك اسئلة اخرى. انما ثقتي بك باتت لا تتطلب سوى ان اعرف من اين اتيتِ ومن اوصلك الى هنا. مع ذلك هذا غير هام. اهلاً بك بدون اي سؤال آخر. هلموا الى مساعدتي. من يوجد هنا ؟ ان كنت ايتها الفتاة بمستوى المسؤولية التي تأخذينها على عاتقك، فان مكافأتي ستعادل معروفك (تصدح الموسيقى ويخرج الجميع).

المشهد الثاني

في قصر كونت روسيّون

تدخل الكونتيس والمهرج.

الكونتيس : هيا يا سيدي، اود أن اختبر مدى حسن تصرفك.

المهرج : انا اتصرف كرجل يتغذى مثل الاغنياء وقد تربى كالفقراء. المهم ان ادخل البلاط الملكي لان هذا من اغلى امنياتي.

الكونتيس : الى البلاط الملكي فقط ؟ وماذا تريد غيره ؟ ألا تعتبرأن في الدنيا سواه. أتريد فقط أن تدخل البلاط ؟

المهرج : في الحقيقة يا سيدتي. اذا منّ الله علي انسان ببعض المواهب والمفاهيم، يمكنه ان يستفيد منها في البلاط بسهولة. فهناك اذا لم يعرف المرء كيف يحني رأسه ويخلع قبعته او يقبّل يد سيدة او يلفظ بعض الكلمات اللائقة في حينها لا يكون لديه يد أو شفة او قبعة، وفي الواقع لا يكون اهلاً لدخول اي بلاط. انما انا لدي على الدوام جواب لكل سؤال ابهر به سامعيّ.

الكونتيس : لعمري كلامك هذا لا غبار عليه ويصلح جواباً على كل سؤال.

المهرج : هو نظير مقعد الحلّاق، على قياس جميع المؤخرات العريضة فيها والمستديرة والمربعة والمحدودبة، اجل على قياس جميع الناس.

الكونتيس : هل حقاً جوابك يصلح كردّ على كل الاسئلة ؟

السهرج : نظير البندقية في يد الجندي، والدينار في يد المرابي، وخاتم الخطوبة في يد العاشق الولهان، وكأس الخمرة في يد المدمن على الشرب، والعاهرة الفاجرة بين ذراعي فاسق متهتك، وشفتي الخادمة الحسناء على ثغر سيدها الشاب الانيق، وبكلمة نظير الطعام الشهي امام الجائع الشره.

الكونتيس : نعم، نعم. تفسيراتك تنطبق على جميع الاستفهامات.

المهرج : من الدوق الى ابسط حارس، تلائم كل الاشخاص وجميع الحالات.

الكونتيس : لا بد من ان يكون جوابك هائلاً ليناسب كل الاسئلة.

المهرج : هذه حقيقة اكيدة في نظر العالم الذي يدرك ويقدّر. الامر واضح جليّ. ما عليك الا ان تسألي وعلي انا ان اجيب. فانا خبير ولساني زلق لا يعييه اي موضوع.

الكونتيس : كم اود ان ارجع الى صباي لو استطعت اليه سبيلاً. لا بد من ان يكون طلبي غريباً. انما جوابك يضفي عليه. بعض القبول. بالله عليك اجبني، هل انت حقاً خبير ؟

المهرج : لعمري هذا سؤال وجيه اطرحي علي الف سؤال ايضاً وانا مستعد للإجابة عليها كلها.

الكونتيس : انا يا صاحبي، صديقة مخلصة اعطف عليك.

المهرج : يا الهي يا الهي. كفى كفى، لا تحرجي نفسك.

الكونتيس : اعتقد يا سيدي بانك غير قادر على الاكل من هذا الطعام الدسم العسير الهضم على معدتك.

المهرج : يا الهي ! جربيني يا سيدتي، ولا تترددي.

الكونتيس : لقد ذقت طعم السوط منذ برهة يا صاح، على ما اظن.

المهرج : يا الهي، يا الهي ! قلت لك، لا تترددي.

الكونتيس : تقول، يا الهي، لا تترددي، عندما اكلمك عن السياط التي نزلت على جسمك كالبرد. في الحقيقة هذا امتحان ناجح. هل ترد بمثل هذه الجرأة عندما تتلقى الضربات.

المهرج : لا، ابداً. لأن املي بالله غير محدود. اعتقد بان الامور تخدم طويلاً لكن ليس دائماً.

الكونتيس : وقتي ضبق في الحقيقة ولا يسعني ان اطيل مزاحي هكذا مع مهووس مثلك.

المهرج : يا الهي. ها هي تشد الوثاق.

الكونتيس : كفى يا هذا. اذهب الآن الى عملك. (تعطيه ورقة) وسلّم هذه الى هيلانة واستعجلها في الجواب حالاً. اوصي اهلي وولدي بها ولا تبال.

المهرج : توصية حارة، يا سيدتي.

الكونتيس : هذه مهمة صعبة عليك. هل تفهمني ؟

المهرج : لكنها مثمرة كثيراً وسأقوم بها فوراً.

الكونتيس : عد سريعاً. (يخرج كل منهما من جهة مخالفة).

المشهد الثالث

في القصر الملكي بباريس وسط قاعة العرش

يدخل برتران ولافو وبارول.

لافو : يقال ان عصر المعجزات ولّى، ولدينا فلاسفة يؤكدون ببساطة اموراً خارقة الطبيعة لا تقبل التأويل. وهذا ما يجعلنا نعتبر اعجب القضايا كمواضيع صبيانية حين نلجأ الى ادعاء العلم بدلاً من ان نقر بجهلها المريع.

بارول : اجل هذه اندر اعجوبة تحدث في عصرنا الحاضر.

برتران : هذا صحيح.

لافو : بعد ان هجرنا اهل الفن.

بارول : هذا ما اقوله عن اشهر العلماء نظير كاليان وبارلْساز.

لافو : مع انهم من اشهر العلماء واجدرهم.

بارول : هذا تماماً ما اقوله انا ايضاً.

لافو : ومن قال خلاف ما ذكرت.

بارول : اجل هذا ما اؤكده بالذات.

لافو : لكن هذا يبعث على اليأس.

بارول : بالضبط كما اريد ان اقول.

لافو : اعني ان هذا جديد في الكون.

بارول : طبعاً اذا اردت برهاناً على ذلك ما عليك إلا ان تقرأه في... بربّك ما اسم هذا الكتاب ؟

لافو : « شرح القوة السماوية على سطح الكرة الارضية ».

باروُل : هذا بالضبط ما اعنيه.

لافو : لعمري، وليّ العهد نفسه ليس أنشط من ناحية...

بارول : امر غريب جداً. الكلمة وجيزة، لكن علينا ان نعود اليها على الدوام. وليس سوى العقول الفاسدة لا تعترف بأن...

لافو : حتى سلطة السماء ذاتها.

بارول : اجل هذا ما اقوله.

لافو : وفي أسوأ الاحتمالات...

بارول : آخر المسؤولين يظهر رغبة سامية متزايدة بان علينا، فوق قدرة الملك ان...

لافو : نعلن اعترافاً شاملاً.

بارول : هذا بالضبط ما كنت انوي قوله. كلماتك جواهر ثمينة. ها هوذا الملك.

(يدخل الملك ومعه هيلانة وبعض الخدم)

لافو : مهما كنت مسناً، اقسم بشرفي باني سأحب الصبايا بحرارة ومودة طالما في فمي اسنان. لكن الا يجوز ان يراقص غيري ؟

بارول : بذمتك، أليست هذه هيلانة ؟

لافو : اجل هي بعينها.

الملك : ارسلوا في طلب جميع رجال الحاشية (يخرج احد الخدم. لهيلانة) ايتها المحسنة الكريمة اجلسي بقرب مريضك، وبيدك الناعمة التي تعيد اليّ نشاطي الذي هجرني، أؤكد لك ما وعدتك به. والآن كلميني

واعلميني من الذي وقع عليه اختيارك كزوج ؟

يدخل سادة عديدون ويصطفّون امام العرش بينما لافو وبارول ينسحبان الى صدر المسرح ليفسحا المجال للباقين.

الملك : ايتها الفتاة الحلوة، اجيلي حول الملك انظارك الفاحصة في هؤلاء الشبان النبلاء العازبين الذين يدينون لي بالطاعة والولاء. فلي عليهم سلطة مطلقة وفضل ابوي. اختاري بحريّة، لان هذا اصبح من حقك، بينما هم لا يجوز لهم ان يرفضوا اي طلب.

هيلانة : ما احلى ان تتيح فرص الحب منح كل منكم حبيبة فاضلة ما عدا واحد فقط. لافو (من صدر المسرح، لبارول) اتنازل عن حصاني بسرجه ولجامه، واحلق لحيتي واقلع اسناني اذا كان حظي اقل من هؤلاء الشبان.

الملك : (لهيلانة) افحصيهم جيداً، فجميعهم من اصل نبيل.

هيلانة : ارى، يا مولاي، ان الله ردّ لجلالتك كامل صحتك.

الجميع : اشعر بذلك، واشكره تعالى على هذه النعمة الغالية.

هيلانة : انا عذراء بسيطة، وكل ثروتي كما اعلن، هي بتوليتي. فاذا شئت يا صاحب الجلالة، انا على اتم الاستعداد للقبول بحكمك. مع ان الاحمرار عندما يعلو وجنتي يهمس في اذني : انا اصبغ خدّيك خجلاً ممن ستختارينه. فاذا كان نصيبك الرفض سيسود الشحوب القاتل محياك، ولن اظهر بعدئذ ابداً على وجنتيك.

الملك : هيا اختاري، واعلمي جيداً ان من يرفض حبك يرفض مودّتي انا بالذات.

هيلانة : الآن يا ديانا، اهرب من هيكلك الى الحب الملكي، هذا الاله الطاغي الذي يكاد يرهق انفاسي (لاول سيد) هل انت مستعد يا سيدي ان تسمع طلبي ؟

السيد الاول : وان ألبّيه ايضاً.

هيلانة : اشكرك يا سيدي، لم يعد لدي ما اضيفه (تلتفت الى السيد الثاني)

لافو : افضل ان اجرّب حظي في اختيارها، على ان اغامر بحياتي برمية زهر اللعب.

هيلانة : (للسيد الثاني) يا سيدي، الفخر الذي يبرق في عينيك الجميلتين، حتى قبل ان اتكلم، قد اثناني عن عزمي، بما تضمره من جواب غير مشجع. اتمنى ان يرفع الحب عشرين مرة الى اعلى، تلك العاطفة المتواضعة التي تنطوي عليها امنيتي.

السيد الثاني : انا لا ارجو اكثر من ذلك، اذا كنت انت راضية.

هيلانة : أملي ان تقبل رجائي، فانا التمس من الحب الكبير ان يحقق حلمي. لذا استأذنك بالانصراف.

لافو : (من صدر المسرح، لبارول) هل رفضها الجميع ؟ لو كانوا ابنائي لأمرت بجلدهم بالسياط، وارسلتهم الى التتري المستبد ليجعل منهم خصياناً.

هيلانة : (للسيد الثالث) لا تفزع اذا تناولت يدك. انا اقدرك كثيراً ولا اريد اذيتك. اسأل الله ان يحقق رغباتك

وارجو لك عروساً افضل مني اذا شئت ان تتزوج.

لافو : (في صدر المسرح) هؤلاء الفتيان قلوبهم من جليد، اذ لم يقبل احد منهم بها. لا شك في انهم جميعاً لقطاء معقّدين، وليسوا اولاداً شرعيين.

هيلانة : (للسيد الرابع) انت صغير السن ونبيل جداً، ولا ترضى بان يكون لك ولد من لحمي ودمي.

السيد الرابع : انا لا افكر هكذا ايتها الصبية الرائعة.

لافو : (يشير الى برتران) لا يزال في العنقود كم حبة عنب. اعتقد بان والد هذا الشاب كان يشرب الخمرة. واذا لم يكن الابن خماراً فانا اكون فتى في الرابعة عشرة من سنّي لاني اعرفه جيداً.

هيلانة : (لبرتران) لا أجرؤ على القول اني اختارك. لكنني اقبل بان اخدمك طوال عمري، واخضع لسلطتك المطلقة. هذا هو الرجل الذي اريده.

الملك : هيا ايها الفتى برتران، خذها فهي زوجتك.

برتران : زوجتي انا يا مولاي ؟ التمس من جلالتك ان تأذن لي باختيار من تستلطفها عيناي.

الملك : أولا تعرف يا برتران، عظم الخدمة الجليلة التي أسدتها اليّ هذه الصبية ؟

برتران : اجل يا مولاي الكريم، انما لا اعلم لماذا يجب علي ان اقترن بها.

الملك : أولا تعرف انها ابرأتني وخلّصتني من براثن آلامي المبرحة، وانتشلتني من أشداق الموت.

برتران : ألانها انهضتك من فراش المرض، يا مولاي، يتحتم عليّ ان اقع انا. اني اعرفها جيداً، لانها تثقفت على نفقة ابي. اتريد ابنة طبيب فقير أن تصبح زوجتي ؟ لن اسمح لأية شقية مثلها ان تهبط بي الى مستواها.

الملك : انا مستعد لان امنحها اللقب الذي يجعلها من مقامك. امر غريب ان نعتبر دماءنا مختلفة باللون والسرعة والحرارة عن غيرها وهي عند هدرها متشابهة لا تمييز فيما بينها إلا بالفوارق التي نقيمها نحن احياناً. ان كنت تأنف من الاقتران بهذه الفتاة لمجرد كونها ابنة طبيب فقير، فانت مخطىء اذ تزدري بالفضيلة، التي تحليها بسبب اسم غير عريق. لا تتصرف هكذا. فعندما تكون الاعمال مشكورة وان جاءت من مستوى متواضع، ترفع صاحبها الى اعلى المراتب. لان الخصال الحميدة تعلي شأن من يتصف بها. والخير يكرم دوماً صاحبه كائناً من كان، كما ان الشر يذل فاعله وان كان من أنبل النبلاء. هي صبية عاقلة وجميلة. وهذا ما اورثته اياها الطبيعة ويعتبر خير حلية وشرف لها. انما لا يحتفظ إلا برواسب الشرف والاخلاق ومن يدعي بانه سليل المجد ولا يشبه اباه الكريم فالنبل منه براء. اعمالنا هي التي تصنعنا لا امجاد اجدادنا. اما لفظة شرف فهي كلمة لا يتم معناها إلا اذا نحن برهنّا على استحقاقنا مدلولها. هي شارة كاذبة نجدها على اضرحة الكثيرين ممن خدعوا البشر بمظاهرهم، وهم غير اهل لان تضم رفاتهم حفنة

التراب الذي جبلوا منه. ماذا اقول لك ؟ اذا كانت العفة تعجبك في هذه العذراء فانا قادر على جعلها تليق بك لأن فضيلتها وشخصيتها اكبر بائنة تأتيك بها. ما دامت الالقاب والثروات عرضة لعوادي الزمان. هذا ما اقدمه لك وألحّ عليك بان تقبل به.

برتران : لا يسعني ان احبها. ولست مستعداً لبذل اي مجهود في هذا السبيل.

الملك : انا واثق بانك ستندم اذا لم توافق على تلبية طلبي.

هيلانة : يكفيني يا مولاي ان اكون سعيدة بشفائك، ولا اريد ان أفكر بغير ذلك.

الملك : اصبحت هيبتي في الميدان، ولكي انقذها عليّ ان اسعى بكل قواي لتلبية رغبتك. هيا خذْ يدها ايها الفتى المستهتر بمثل هذه المواهب النادرة. انت تتجاسر على احتقار عطفي بوقاحة ولا تقيم وزناً لنصيحتي النزيهة. انت تتجاهل اني عندما اضع ثقلي في كفة الميزان تخف امجاد اسرتك كثيراً حيال ما انوي ان اخلعه عليها من تقدير وهبات، وما اتحف به عرسها من رفعة وجاه. فاضغط على تشامخك وازدرائك وأخضع ارادتك لمشيئتي التي لا تبغي سوى غمرك بالخير والبركة. لا تصغ الى غرور كبريائك بل انظر الى مصلحتك وما يمليه عليك واجبك في خدمة سلطتي الواسعة، وإلا حجبت عنك رعايتي وعرّضت مستقبلك وشبابك لمساوىء انت في غنى عنها، تزجك فيها قلة خبرتك

في الحياة وعماهة بصيرتك الحمقاء. لان غضبي سيحرمك من عدلي ومن عطفي. هيا تكلم وقل لي حالاً ما هو قرارك النهائي ؟

برتران : اعذرني يا مولاي، لا يمكنني إلا ان ازعن لوجهة نظرك. لاني اعرف مدى الشرف والاكرام الذي تستطيع ان تحوله عني اذا خرجت عن طاعتك يا صاحب الجلالة. فان نبل محتدي يأبى عليَّ إلا ان اتفيأ بكنف رعايتك وحمايتك.

الملك : تناول يدها اذاً، واعلن لها قبولك بها زوجة. وانا اعدها بثروة ولقب بمستوى مرتبتك.

برتران : ها انا امتثل وآخذ يدها.

الملك : ما اسعدك لانك قدّرت اخيراً ما اريده انا مليكك لك من الجاه والرفعة. هذا العهد الذي ولد الآن سأكرسه هذه الليلة في حفلة فاخرة. اما وليمة العرس فتقام حين يحضر الغائبون من الاهل. فان احببتها برهنت على انك فعلاً توقرني وتودّني، والا اعتبرت ذلك منك استهتاراً وتمرداً مبطناً ونفاقاً بغيضاً. (يخرج الملك وبرتران وهيلانة والسادة والخدم).

لافو : (لبارول) اسمع يا سيدي هذه الكلمة.

بارول : ماذا تريد يا سيدي.

لافو : حسناً فعل مولاك بانسحابه.

بارول : انسحاب مولاي ؟

لافو : أجل. هل أتحدث بلغة غير مفهومة ؟

باروْل : بل بلغة قاسية لا يمكن سماعه بدون اراقة الدماء. تقول مولاي ؟

لافو : وهل انت تساوي كونت روسيون ؟

بارول : عن اي كونت تتكلم ؟ عن جميع الكونتات ؟ عن اي رجل كان ؟

لافو : عن اي شخص لقبه كونت. وهل رفيق الكونت من طينة اخرى.

بارول : انت متقدم في السن يا سيدي، وهذا يكفي لتصنيف أقوالك.

لافو : أؤكد لك ايها المخادع، اني ملقب برجل وهذا لن تحصل عليه مهما تقدمت انت في العمر.

بارول : ان لم اجرؤ على عمل اي شيء عفوياً، لن افعله ابداً.

لافو : اثناء لقائي بك على المائدة مرتين ظننت انك فتى عاقل. وقد رتبت تفاصيل رحلتك بجدارة مشكورة حملتني على اعتبار سفينتك من الوزن الثقيل. والآن اهتديت اليك. فاذا فقدتك يعز علي الامر لأنك تميل الى الشجاعة وعليك ان تعيد الكرة في اية لحظة ولن يأسف احد على غيابك.

بارول : ولو لم تكن في نظري من ذوي الصفات الحميدة القديمة.

لافو : لا تستسلم الى الغضب لئلا تجرفك اهواؤك، وتصبح مثل دجاجة مبلولة... اياك ان تستسلم ايضاً الى الحسد

والغدر. وداعاً. انا لست بحاجة لان افتح لك قلبي على مصراعيه. فانا ارى... اعطني يدك.

بارول : كلامي في محله، انت تستحق اكثر من ذلك. انا لم افعل ما يستوجب تأنيبك، يا سيدي.

لافو : اجل وستشرب ما اصبه عليك من لوم حتى الثمالة. لاني غير مستعد للتراجع قيد شعرة عن موقفي.

بارول : هذا درس قاس لي.

لافو : استفد منه اذاً. وان شئت ان تحكّم عقلك، امامك طريق وعر وطويل عليك ان تجتازه. اما ان شاهدت نفسك يوماً مغلوباً على امرك فيجب ان تعلم ان عنادك أوصلك الى هذا المأزق. اود ان اعرفك معرفة اوفى وان ادرس طباعك بصورة افضل كي يتسنى لي ان اقول عند الحاجة : « هذا رجل اعرف بواطنه كما يجب ».

بارول : انت تغيظني بطريقة غير مباشرة.

لافو : كنت اود أن يكون عذاب الجحيم من نصيبك وان افرضه عليك الى الابد. لكن لم يعد لي من قوة، لذا اتركك بما تسمح لي شيخوختي من السرعة (يخرج).

بارول : انت لك ولد يغسل عنك هذه الاهانة الوقحة ايها العجوز المستهتر. إصبر قليلاً اذ لا سبيل الى تحقير الاشخاص المسنين. اقسم بحياتي باني سأؤنبه حالما اصادفه في اول فرصة مهما كان مقامه رفيعاً، ولن ارحم شيخوخته. اجل سأوبخه حالما اصادفه.

(يدخل لافو).

لافو : يا محتال، سيدك قد تزوج واصبح لك سيدة جديدة، فهل بلغك هذا النبأ ام لا ؟

بارول : التمس من سيادتك ان تجنبني هذه الاهانة. فالكونت هو سيدي الصغير العزيز، ومولاي الكبير هو الذي اخدمه هناك في العلاء.

لافو : من تقصد ؟ الله سبحانه وتعالى ؟

بارول : اجل، يا سيدي.

لافو : استغفر ربك بل سيدك هو الشيطان بعينه. لماذا تشبك ذراعيك هكذا على صدرك ؟ هل يفعل احد من الخدم هكذا ؟ عليك ان تحشر قسمك الكاذب حيث يوجد أنفك. بشرفي، لو كنت اصغر سناً لما تأخرت عن ضربك. يخيل اليّ ان وجودك هنا فضيحة سافلة، على كل الناس ان يرذلوها. واعتقد بأنك خلقت لتكون اضحوكة الجميع.

بارول : هذه المعاملة قاسية جداً ولا استحقها يا مولاي.

لافو : ما هذا الكلام ؟ لقد كان نصيبك الضرب في ايطاليا لانك اختلست رمّانة. انت متشرد ولست مسافراً شريفاً. انت ترافق السادة وصفوة الناس الكرماء الذين لا تساويهم في المقام، لذلك تستحق كل كلمة لوم وعتاب، وتستوجب اعتبارك دجالاً. ها انا اغادرك (يخرج).

(يدخل برتران)

باروول : جيد جداً. هكذا تسير الامور على ما يرام. دعنا نتغافل عن المسألة بعض الوقت.

برتران : هل حكم عليّ بحمل الهموم الى الابد ؟

باروول : ماذا دهاك يا عزيزي ؟

برتران : مهما اقسمت من ايمان في هذه الساعة امام الجميع، لن اقبلها كزوجة.

باروول : ماذا تقول، يا صديقي.

برتران : لقد زفوني قسراً يا عزيزي باروول. انا ذاهب الى الحرب في توسكانا، ولن اقبل بها مطلقاً كزوجة.

باروول : اني لا احبّذ بقاءك في فرنسا التي لا تستحق التضحية. هيا الى الحرب.

برتران : هذه رسائل من والدتي ولا ادري ما هو مضمونها. لاني لم اقرأها بعد.

باروول : يجمل بك ان تطلع عليها. هيا الى الحرب، يا ولدي. من يبقى في بيته ليعانق زوجته الشرعية ويصرف بين ذراعيها نسغ رجولته بدلاً من ان يساند ابطال الحرب الشجعان يدفن شرفه في التبن. وفي معظم انحاء فرنسا نعيش كالبهائم كما لو كنا في اسطبل. اوليس الأولى بنا اذاً ان نمضي الى الحرب ؟

برتران : اجل، هذا واجب. سأرسل زوجتي المزعومة الى بيتنا وسأنبىء امّي بكرهي لهذه الفتاة التي تسببت في هربي. سأكتب الى الملك ما لم اجرؤ على مصارحته به. لان

هذه الهبة التي قدمها لي ستحملني على الالتحاق بحملة ايطاليا لمحاربة العديد من النبلاء. اذ بتّ ارى في الحرب هدوءاً لا يقاس بما تثيره داخل بيتي هذه المرأة البغيضة من قلق واضطراب.

بارول : هل سيدوم هوسك هذا ؟ هل انت واثق مما تقول ؟

برتران : تعال معي الى غرفتي لتزويدي بنصائحك. اريد أن ارسلها في الحال. وغداً نذهب، انا الى الحرب، وانت الى عزلتك الكئيبة.

بارول : هذه فكرة رائعة اقدرها كثيراً. فهي نظير الموسيقى الشجية، وقعها ساحر وعميق الاثر. الشاب المتزوج لا يسعه ان يكون إلا رجلاً تعيساً تنخر الحسرة قلبه. فالى الامام اذاً. ساتخلّى عنها بشجاعة، هيا. الملك غاظك بهذا التصرف ولا حيلة لك ازاءه سوى الصمت اذ لا سبيل الى تغيير حرف من هذا الحال (يخرجان).

المشهد الرابع

في مكان آخر من القصر.

تدخل هيلانة وفي يدها رسالة ثم يدخل المهرج.

هيلانة : والدتي تخاطبني بحنان. ارجو ان تكون بخير.

المهرج : هي ليست على ما يرام. انما صحتها جيدة. وهي

مسرورة انما ليست سعيدة كما قلت. هي بالف خير ولا ينقصها شيء في الدنيا. لكنها مع ذلك ليست على ما يرام.

هيلانة : ان كانت بالف خير، فماذا يحول دون ان تكون سعيدة ؟

المهرج : في الحقيقة هي بالف خير ولا ينقصها سوى امرين.

هيلانة : الاول انها ليست بالجنة حيث يشاء الله ان يسكنها قريباً، والآخر انها لا تزال على الارض حيث يريد الله ان يبقيها لينقلها الى جواره عما قريب.

(يدخل بارول)

بارول : حلت عليك البركة، يا سيدتي الطيبة القلب.

هيلانة : انا واثقة يا سيدي بانك تتمنى لي كل خير وهناء.

بارول : اتمنى حقاً ان تزيد افراحك وتدوم الى ما شاء الله (للمهرج) أهذا انت يا مغفل ؟ كيف حال سيدتي العجوز ؟

المهرج : آمل ان ترتسم تجاعيد وجهها على محياك، وان انال انا دراهمها كما أشتهي.

بارول : انا لم انبس ببنت شفة.

المهرج : لعمري، انت لست اعقل مما اظن، لان لسان المرء غالباً ما يرمي بصاحبه في المهالك. يجمل بك ان لا تلفظ حرفاً ولا تأتي عملاً ولا تعرف شيئاً ولا تملك درهماً، حينئذ بصفاتك المذكورة لن تساوي شروى نقير.

بارول : الى الوراء، ايها المحتال الدجال.

المهرج : كان الأولى بك يا مولاي ان تقول لي اني دجال اواجه دجالاً، لكنت بالصواب نطقت يا مولاي.

بارول : هيا انت مجنون موتور. وقد اكتشفك على حقيقتك.

المهرج : او لم تكتشفني في شخصك، يا مولاي؟ او لم يكلفك احد بالبحث عني ؟ فالبحث لن يضيع سدىً، واذ يوصلك الى اكتشاف جنونك المطبق المتغلغل الى اعماقك سيفرح جميع الناس وتتضاعف سخرياتهم وضحكاتهم.

بارول : انت مغفل منقطع النظير حقاً، وهوسك لا يدع مجالاً للشك، وفوق ذلك تريد الرحيل هذا المساء يا سيدي، لان قضية هامة تستدعيها. هناك واجبات جسيمة ودواعي حب لا يُقاوم تقتضي حضورها لإتمامها. وهذا امر لا يجهله احد مع ان الامتناع القسري يضطرها الى التأجيل، فصبراً. في هذه الاثناء لا بد من ان تجتمع العناصر الفعّالة لمعالجة الوضع بنقعه طويلاً في خلاصة التبصر وحسن التبديد لبلوغ الفرج اخيراً ونيل الارب.

هيلانة : وماذا يريد ايضاً ؟

بارول : ان تستأذني الملك حالاً بالانصراف، وان تظهري هذا الرحيل المباغت كانه عمل شخصي نابع من محض ارادتك، وان تضفي عليه مسحة مقنعة تستنبطينها للتذرع بها.

هيلانة : بماذا يأمر فوق ذلك ؟

بارول : بعد ان تستأذني الملك بالانصراف، ان تنتظري تعليماته اللاحقة.

هيلانة : على كل حال انا رهن اشارته.

بارول : هذا ما اوصيك به.

هيلانة : ارجوك. (للمهرج) تعال معي يا مغفل. (يخرجان).

المشهد الخامس

في مكان آخر من القصر

يدخل لافو وبرتران

لافو : آمل ان لا تنظر سيادتك اليه كجندي بسيط.

برتران : كما تريد يا مولاي، بل كجندي عالي الهمة وافر الخبرة.

لافو : انت تصدق ذلك استناداً الى تصريحاته.

برتران : والى شهادات اخرى لا سبيل الى دحضها.

لافو : اذاً اكون مخطئاً اذا ظننت هذا الصقر نسراً.

برتران : أؤكد لك يا مولاي انه رجل ذو علم واسع وكفاءة ضئيلة.

لافو : اذاً انا مقصر بحق علمه ومتجاوز بحق قيمته، وحالتي خطرة بقدر ما يرشقه به ضميره من توبيخ. ها هوذا آتٍ. ارجوك ان تصالحنا لاني أروم صداقته.

(يدخل بارول).

بارول : (لبرتران بصوت خافت) سيتم كل شيء كما يجب.
لافو : هل يمكنك ان تعلمني يا سيدي، من هو خياطك ؟
بارول : ماذا قلت، يا سيدي ؟
لافو : ان اعرفه جيداً. اجل يا سيدي. هو بالطبع عامل ماهر وخياط بارع.
برتران : (لبارول بصوت خافت) هل ابصرت الملك ؟
بارول : نعم.
برتران : هل هي راحلة هذا المساء ؟
بارول : كما تشاء سيادتك.
برتران : كتبت رسائلي واقفلت بالمفتاح على ما لدي من اشياء ثمينة، وأصدرت اوامري لاعداد الجياد. وهذا المساء حين احصل على العروس انهي المسألة قبل ان ابدأ...
لافو : هذا ما يفعله المسافر الشريف عند تأهبه للرحيل. انما من يكون ثلثا قصته كذباً ويذكر حقيقة معروفة لتمرير الف عبارة تافهة، هذا يستحق ان يُسمع كلامه مرة وان يُضرب ثلاث مرات بسبب تفاهة نفاقه. (لبارول) حفظك الله ايها القائد الهمام.
برتران : (لبارول) هل من نفور بينك وبين هذا السيد، يا مولاي ؟
بارول : لست ادري ماذا يتحتم علي ان افعل لانال الحظوة في عيني هذا السيد.
لافو : لقد توصلت الى امتلاك قلبه بخبرتك وهمتك نظير سمير الملك الذي زلت قدمه وسقط في صحن

الحلوى. فانصحك ان تهرول مسرعاً لكي لا يسألك كيف وقعت فيه.

برتران : (للافو) ربما لم تقدره حق قدره، يا مولاي.

لافو : هذا ما يحدث لي دائماً عندما افاجئه وهو يصلّي. الوداع يا سيدي. صدقني، ليس في هذه القشرة الرقيقة من لوزة. ان شخصية هذا الرجل في ثيابه، فلا تتكل عليه في اية عملية خطيرة النتائج. ولقد جربت سواه وعرفت مقدار طبعه. (لبارول) الوداع، يا سيدي. تكلمت عنك بافضل مما تستحق الآن وفي المستقبل. لا بد لنا من ان نقابل الشر بالخير. (يخرج)

بارول : اقسم لك ان عقل هذا السيد غير مكتمل.

برتران : على ما اظن.

بارول : كيف تقول هذا ؟ ألا تعرفه ؟

برتران : اجل اعرفه جيداً. وهو حائز على رضى الجميع. ها هي السلسلة التي تقيدني.

(تدخل هيلانة)

هيلانة : كما اوصيتني يا سيدي كلّمت الملك، وحصلت على اذنه بالرحيل فوراً. انما هو يريد محادثتك.

برتران : انا طوع بنانه. يجب عليك يا هيلانة ان لا تستغربي سلوكي الذي يبدو لك بعيداً عن ظروفي وكما تقتضيه مهمتي والعمل المقدس المفروض عليّ. انا لم اكن مهيأً لمثل هذا الحدث الهام. لذا ترينني هكذا مضطرباً، لان المسألة تدعوني الى ان ارجوك للعودة حالاً الى

مقرك. فأوجدي لنفسك قبل غيرك حجة هذا الالتماس. لان عذري لا يبدو اولى مما هو في الواقع. والامور التي تستدعيني هي أعجل مما تظهر لاول وهلة لا سيما لك انت التي تعرفينها (يسلمها ورقة) هذه لوالدتي. سيمضي يومان قبل ان اشاهدك من جديد، لذا اتركك تتصرفين بحكمتك.

هيلانة : كل ما يسعني هو اني خادمتك الامينة التي تكنّ لك كل احترام.

برتران : هيا، هيا. كفّي عن هذا التبجيل.

هيلانة : لن انقطع عن سد الفراغ بينما انا لا احد يسعفني وقد خانني الحظ ولم أعد قادرة على مواصلة السعي.

برتران : اتركي هذا. فانا مستعجل جداً. الى اللقاء. إمضي سريعاً.

هيلانة : ارجوك يا مولاي ان تعذرني.

برتران : ماذا تريدين ان تقولي.

هيلانة : انا لا استحق الكنز الذي حصلت عليه، ولا اجرؤ على القول هذا لي مع انه في الواقع يخصني. وانا مستعدة لان أخطف حياءً وبملء الرضى، ما جعله القانون من نصيبي.

برتران : ماذا تقصدين ؟

هيلانة : امراً ما، بل بالأحرى لا شيء في الحقيقة. لا اريد ان اعلمك يا سيدي بما تصبو نفسي اليه. انما الغرباء والاعداء وحدهم يفترقون بدون ان يتعانقوا.

برتران : لا تتأخري. ارجوك ان تعجّلي في الرحيل. هيا الى حصانك. اسرعي.

هيلانة : لن اخالف امرك ابداً يا مولاي الكريم.

برتران : (لبارول) اين سائر رجالي يا سيدي ؟ (لهيلانة) الوداع (تخرج هيلانة) اذهبي. هيا عودي الى بيتي. اما انا فلن ارجع اليه ابداً طالما استطعت ان اشهر سيفي او اسمع قرع طبلي. الى الامام، الى الهرب.

بارول : تشجع. عافاك المولى (يخرجان).

الفصل الثالث

المشهد الاول

في فلورنسا داخل قصر الدوق.

تصدح الموسيقى. يدخل دوق فلورنسا مع حاشيته ثم اثنان من السادة الفرنسيين وعدد من المرافقين.

الدوق : هكذا سمعت الآن نقطة فنقطة اسباب هذه الحرب الاساسية في مختلف مناقشاتها الخطرة وقد أسالت ولا تزال تسيل نهراً من الدماء.

السيد الاول : هذه الحرب تبدو لسيادتك ظالمة وفتاكة يشنها العدو علينا بضراوة.

الدوق : لذلك انا مدهوش جداً ان يوصد ابن عمنا ملك فرنسا قلبه دون اغاثتنا في قضيتنا هذه العادلة.

السيد الثاني : يا مولاي الكريم، لا يسعني ان اعيّن المعطيات البذيئة كرجل غير مطلع على ما يستدعي النصائح الضرورية في مثل هذه الاحوال الغامضة. انا لا استطيع ان اصارحك بما يجول في فكري، لاني وجدت نفسي في هذا

المأزق الغارق في الفوضى وقد خابت جميع آمالي.

الدوق : دعوا الملك يتصرف على هواه.

السيد الثاني : لكني واثق بان نخبة من شبابنا الذين ضايقهم الجمود سيتوصلون يوماً الى العثور هنا على الدواء اللازم لمعالجة هذا الوضع المتردي.

الدوق : اهلاً بهم وسأحيطهم بكل الاكرام الذي يمكنني ان اخصهم به. انتم تعرفون مراكزكم. وحالما يسقط بعض القادة المتقدمون ستستفيدون انتم في شغل مواقعهم. فإلى الغد، ايها الشجعان، في السهل ملتقى البطولة والانتصار. (تصدح الموسيقى ويخرجون).

المشهد الثاني

في قصر كونت روسيّون.

تدخل الكونتيس والمهرج.

الكونتيس : كل شيء تمّ كما اريد، ما عدا مجيئه معها الى هنا.

المهرج : بشرفي، ارى سيدي الشاب هذه الايام شديد الكآبة.

الكونتيس : ارجوك ان تفسّر لي كيف عرفت ذلك ؟

المهرج : مثلاً، هو ينظر الى حذائه ويدمدم، ويحكم سترته ويدمدم، يطرح سؤالاً ثم يدمدم، ينظف اسنانه ويدمدم. وانا اعرف رجلاً بهذا المزاج الغريب باع قصره الرائع لقاء اغنية.

الكونتيس : (تفتح الورقة المطوية) لننظر ماذا يكتب لي ومتى يريد ان يأتي إلينا.

المهرج : انا لم اعد اميل الى ايزابو منذ أن جئت الي هنا. لان جماعتنا وايزابو في الريف لا يوازون جماعتكم في البلاط. وإله الحب في نظري قد فقد عقله، فبدأت اهوى بدون حماس نظير رجل عجوز يتضاعف تعلقه بالمال.

الكونتيس : ماذا ارى هنا ؟

المهرج : ما تقع عليه عيناك (يخرج).

الكونتيس : (تقرأ) « أرسل لك كنّة أنقذت حياة الملك وأتلفتْ حياتي. تزوجتها لكني لم امتلكها، وأقسمت على ان لا اقدم على ذلك ما دمت حياً. ستدرين باني هربت. لذا افضل ان اطلعك انا بنفسي على الامر قبل ان ينقله الناس اليك كما يحلو لهم. وإذا كانت الدنيا واسعة كما يقال سأترك مسافة شاسعة بيني وبينها.

بكل محبة واحترام، ولدك التعيس »

برتران

لقد اخطأت ايها الطائش بفرارك من افضال الملك الكريم، وبجلب غضبه على رأسك، وبكرهك فتاة فضيلة كسبت احتقار الامبراطور.

(يدخل المهرج).

المهرج : يا سيدتي، بأي نبأ حزين أتتنا سيدتي الصبية والفارسان اللذان رافقاها ؟

الكونتيس : ما الخبر ؟

المهجرج : على كل حال، لا يخلو النبأ من تعزية، فابنك لن يُقتل على ما اعتقد.

الكونتيس : وماذا ينقذه من القتل يا ترى ؟

المهرج : لن يُقتل يا سيدتي، اذا ظل هارباً كما علمت. فهكذا لن يعرّض نفسه لاخطار الحرب على اثر تبعثر صفوف المقاتلين، على كل الحال سيهلك عدد كبير من الرجال، وهكذا لن تتم ولادات كثيرة. ها هم بعض القادمين قد اتوا ليخبروك بما ترغبين من التفاصيل. انا من جهتي، اعلم فقط ان ولدك قد هرب. (يخرج).

(تدخل هيلانة ووجيهان).

الوجيه الاول : (للكونتيس) حفظك الله يا سيدتي.

هيلانة : يبدو، يا سيدتي، ان مولاي ذهب نهائياً.

الوجيه الثاني : لا تقولي ذلك.

الكونتيس : اعتصمي بالصبر. عذراً يا سادة. واجهت مراراً تعاقب الافراح والاتراح حتى لم تعد هذه ولا تلك تفزعني لاول وهلة. ارجوك ان تقول لي اين ولدي ؟

الوجيه الثاني : مضى يا سيدتي ليخدم دوق فلورنسا. وقد صادفناه في الطريق. نحن آتون من تلك الجهات، وبعد تسليم بعض رسائل عاجلة لرجال البلاط سنعود بدون تأخير.

هيلانة : ألقي نظرة على هذه الرسالة، يا سيدتي. (تقرأ) « عندما تستلمين الخاتم الذي اضعه في اصبعي والذي لن يفارقه ابداً، وعندما تُريني ولداً انجبته من احشائك

واكون انا اباه، حينئذ يمكنك ان تعتبريني زوجك. لكن حتى ذلك الحين لن اكون رجلك ابداً ». هذا حكم رهيب جائر.

الكونتيس : هل جئت بهذه الرسالة، يا سيدي، من قبل ولدي ؟

الوجيه الاول : نعم يا سيدتي، ونظراً الى مضمونها العجيب، آسف على ما تجشمته من مصاعب في سبيلها.

الكونتيس : ارجوك يا هيلانة العزيزة ان تتشجعي، لانك باحتكارك جميع الآلام لنفسك تحرمينني من نصفها. لقد كان ابني، لكني انكرت الآن انتماءه اليّ. فانت من الآن وصاعداً ابنتي الوحيدة. اظن انه ذهب الى فلورنسا!

الوجيه الثاني : نعم يا سيدتي.

الكونتيس : لينخرط في سلك الجندية.

الوجيه الثاني : صدقيني، هذه رغبته السامية، وسيحيطه الدوق بكل الاكرام الذي يستحقه مستواه.

الكونتيس : هل انتما راجعان الى هناك ؟

الوجيه الاول : اجل يا سيدتي، على جناح العجلة في اول عربة سريعة.

هيلانة : (تقرأ) « الى ان لا يعود لي من زوجة، لن تعني لي فرنسا اي شيء » هذا قول في غاية المرارة.

الكونتيس : هل هذا مذكور في الرسالة ؟

هيلانة : نعم، يا سيدتي.

الوجيه الاول : هذه ليست سوى فورة غضب لن يطاوعه قلبه على استمرارها.

الكونتيس : يقول : ان فرنسا لن تعني له شيئاً الى ان لا يبقى له

زوجة. ان كان في الدنيا مخلوق افضل من ابني، فهي حتماً هذه الصبية الممتازة التي تستحق زوجاً يخدمه عشرون احمق مثل ولدي، ويحبونها في كل حين كسيدتهم الكريمة. من كان برفقته عندما رأيته ؟

الوجيه الاول : خادم فقط، ووجيه عرفته فيما مضى.

الكونتيس : هو حتماً السيد بارول، اليس كذلك ؟

الوجيه الاول : اجل يا سيدتي، هو نفسه.

الكونتيس : وهو شخص غبي سافل، يورّط ابني في حماقات لا شأن له فيها.

الوجيه الاول : بالفعل يا سيدتي الجليلة، هذا الفتى غارق في القبائح والمعاصي ويتحتم عليه ان يقلع عن صحبته.

الكونتيس : اهلاً بكما، يا سيدي. ارجوك عندما تقابل ولدي ان تعلمه بان السيف لا يسترد الشرف المفقود. وعلاوة على ذلك، ارجوك ايضاً ان تسلمه الرسالة التي ساعطيك اياها.

الوجيه الثاني : نحن رهن اشارتك في هذه المهمة يا سيدتي، وفي كل مهمة تكلفيننا بها في سبيل قضية جديدة مثلها.

الكونتيس : اشكر لطفكما، وارجو ان ارد لكما هذه الخدمة الكبيرة. هل تريدان ان ترافقاني ؟ (تخرج الكونتيس ويتبعها الوجيهان).

هيلانة : (وحدها) « الى ان لا يبقى لي من زوجة، لن تعني لي فرنسا اي شيء ». فرنسا لن تعني له اي شيء الى ان لا يبقى له من زوجة. لن تبقى لك زوجة يا روسيّون في

فرنسا. فاستردّ اذاً جميع حقوقك. لاني طردتك من بلدك وعرّضتك لمخاطر حرب لا هوادة فيها، لاني أبعدتك عن مرح البلاط حيث كنت قبلة انظار احلى العيون لتصبح هدف السيوف القذرة. ايها الرصاص الاعمى الطائر بعنف على اجنحة اللهيب ضلّ طريقك وَضِع في الفضاء. اغلق وراءك الهواء الذي يشقه ازيزك بدون انقطاع ولا تمسّ سيدي بسوء. الرجل الذي سيطلق عليه النار، انا عينته للتربص به، والرجل الذي سيصوب سلاحه الى صدره المغامر، انا الحقيرة حرضته على ذلك. واذا لم أتسبب في قتله اكون قد عجلت موته. فاولى بي ان اتعرّض للاسد المفترس حين يزأر تحت وطأة الجوع كي يمزقني بانيابه لاني استحق جميع مصائب العالم دفعة واحدة. لا، لا يجب ان تعود الى بيتك يا روسيّون. غادرة هذه الحرب حيث الجرح يمكن ان يقضي على اي انسان. اريد ان أرحل، لان حضوري هنا يبعدك عن اهلك. وهل يسعني ان امكث ؟ كلا ثم كلا، عندما يهب الريح على هذا البيت آتياً من الفردوس، عندما تسعفنا الملائكة اريد ان ارحل، لتوصل اليك النسمة الكئيبة نبأ هربي وتعزّي قلبك الحزين. اقترب ايها الليل، وغب ايها النهار لاني اود ان اتسلّل ملتفّة بأساي كالسارقة واختفي في أحلك الظلمات الفاحمة. (تخرج).

المشهد الثالث

في معسكر امام فلورنسا.

تصدح الموسيقى. يدخل دوق فلورنسا وبرتران وسادة وضباط وجنود وغيرهم.

الدوق : (لبرتران) انت قائد فرساننا، وركن هام يدعم آمالنا، ونحن مستعدون لتلبية وعود طالعك الميمون.

برتران : هذا عبء ثقيل على كاهلي، على كل حال، سنسعى لمنساندتك في امجادك حتى النفس الاخير.

الدوق : الى الامام اذاً. وكل املي ان يحالف الحظ سيوفنا ويقودنا الى النصر المجيد. إلبث في مستوى افكاري، وسترى فيّ صديق محبيك وعدوّ مبغضيك.

المشهد الرابع

في قصر كونت روسيّون

تدخل الكونتيس ووكيل الصرف.

الكونتيس : يا للاسف، لماذا تعهدت بايصال هذه الرسالة اليّ ؟ الم تتوقع ما اسفر عنه محتواها ؟ وهي ما كتبت الا لهذه الغاية. اعد قراءتها.

وكيل الصرف : « انا ذاهبة لزيارة احد المعابد، لان ولعاً جسوراً قد مهّد لي ارتكاب خطأً جسيم يدعوني الى التكفير عنه بسيري حافية القدمين على الارض الباردة. اكتبي اليّ حتى عندما يترك ابنك مهنة حمل السلاح، ويعود اليك سيداً

عزيزاً بأقرب وقت. أمّني له السعادة تحت سقف بيتك وفي كنف رعايتك : بينما انا في بعدي عنه اقدس اسمه بخشوع وهيام. اطلبي منه ان يسامحني على ما سببته له من متاعب. فقد قررت الانسحاب نهائياً من حياته مهما واجهت من مخاطر وتحملت من عذاب. هو طيب القلب وانا لاجل تحريره من ارتباطه بي بوثاق الزواج، لن احجم عن الارتماء في احضان الموت ».

الكونتيس : كم من الالم والشفاء يكمن في هذا التصريح المتصاعد من قلب جريح. انت يا بني لم تظهر في حياتك قلة تفكير إلا عندما حملتها على الرحيل هكذا. لو كنت تحدثت اليها لاقنعتها بالعدول عن مشروعها الاليم لكنها لم تترك لي مجالاً لابقائها عندي كما اتمنى.

وكيل الصرف : اعذريني يا سيدتي، كان علي ان اسلمك رسالته قبل هبوط الليل حتى يتسنى لنا العثور عليها. لكنها كتبت ان كل محاولة ستذهب سدىً.

الكونتيس : اي ملاك سيبارك هذا الزواج العاق ؟ لن ينجح الاّ بفضل صلوات هيلانة. فأسأل الله ان يستجيب دعاءها وان يسامحه على ضلاله ولا ينزل به ما يستحقه من عقاب صارم. اكتب، اكتب يا رينالدو، الى هذا الزوج الغبي الذي لا يستحق هذه المرأة المثالية، وبيّن له ان ما قاله بحقها سخيف غير معقول، وانه ادمى فؤادي بتصرفه الارعن. اجل، ارجوك ان تبرز له شناعة ما اقدم عليه من طيش. عجل في تسليمه هذه الرسالة، لانه

عندما يعلم برحيلها، قد يبادر الى الرجوع اليّ، وآمل ان تعود هي ايضاً حالما تدري بالامر لان حبها له عميق اصيل. ومهما كان عزيزاً عليّ، لست قادرة على عدم تقدير عواطفها في هذا المجال. ارجوك ان تعجل في ايصال هذه الرسالة اليه، لان قلبي مثقل بالهموم، والاعوام قد اضنت بنيتي واضعفت همتي. ولم اعد اتحمل ذرف الدموع السخينة وسهر الليالي، ولا يدفعني الى هذه البادرة إلا قلقي على مصير الاثنين معاً.

المشهد الخامس

عند اسوار فلورنسا

يسمع وقع مسيرة عسكرية بعيدة. تدخل ارملة عجوز من فلورنسا ثم ديانا وفيولنتا ومريانا وبعض الاشخاص.

الارملة : هيا تعالوا، اذا اقترب هؤلاء الجنود من المدينة نخسر جمال الطبيعة الذي نتمتع به.

ديانا : يقال ان الكونت الفرنسي قد ادّى لنا خدمات جليلة.

الارملة : هناك اشاعة انه اسر قائداً من الاعداء، وانه بيده قتل شقيق الدوق المتمرد. لقد اضاعوا جهودنا بسلوكهم طريقاً مخالفاً. أنصتوا، ألا يمكن التعرف عليهم من اصوات ابواقهم ؟

مريانا : هيّا بنا نرجع الى بيونا مكتفين بالقصة التي سمعناها.

صدقيني يا ديانا، واحذري هذا الكونت الفرنسي. لان،
شرف العذراء هو ميزتها البارزة وهو ليس ارثاً يعوّض
ويكتسب مثل الفضيلة.

الارملة : اخبرت جارتي كيف اراد أحد الوجهاء من مرافقيك ان يستميلك.

مريانا : انا اعرف هذا اللعين. قتله الطاعون. هو محتال يدعى بارول، متآمر دساس يعمل لحساب الكونت. احذريهم يا ديانا لان وعودهم وعهودهم وهداياهم ليست سوى مظاهر دعارة تتستر باسماء اخرى للتمويه. وقد ذهبت فتيات عديدات ضحايا غوايتهم ومكرهم. والبلية العظمى هي ان البتولية العريقة لا يسعها ان تمنع ضحايا جدداً من ان تلصق بالدبق الذي يهدّدهن، وانا في غنى على ما اعتقد، عن قول المزيد بهذا المعنى. انما النعمة التي تملكينها ستحفظك من كل شر، اذا لم تتعرضي لخطر سوى خسارة وداعتك.

ديانا : لا داعي للخوف عليّ.

(تدخل هيلانة متنكرة وملثمة بشال).

الارملة : ارجو ذلك من كل قلبي. ها هي الملثمة بالشال تقترب منا. وانا واثقة بانها ترغب في السكن عندي، لان كثيرات يرغبن في ذلك. دعيني استجوبها. (لهيلانة) حفظك الله يا سيدتي، الى اين انت ذاهبة ؟

هيلانة : الى المعبد. قولي لي، من فضلك، اين يبيت الزائرون.

الارملة : في نزل الصلاح القريب من هنا، في جوار باب المدينة.

هيلانة : وهل يؤدي اليه هذا الدرب الذي نراه امامنا ؟
الارملة : اجل. (تسمع مشية عسكرية بعيدة) اسمعي، ها هم الجنود قادمون الينا. فاذا شئت ان تنتظري مرورهم ايتها الزائرة التقية، رافقتك الى هناك. إذ إني، لحسن حظك، اعرف صاحبة النزل المذكور.
هيلانة : هل انت صاحبته ؟
الارملة : اذا لم يزعجك ذلك.
هيلانة : شكراً. سانتظرك.
الارملة : هل انت قادمة من فرنسا ؟
هيلانة : اجل يا سيدتي.
الارملة : ستشاهدين هنا احد ابناء بلدك، وقد ادّى لنا خدمات جليلة.
هيلانة : ارجوك ان تقولي لي ما اسمه ؟
ديانا : كونت روسيّون. هل تعرفينه ؟
هيلانة : بسماع ذكره فقط كأحد النبلاء الشبان، لكني لم ابصره ابداً.
ديانا : مهما كان الامر، هو فتى مشكور السلوك، هرب من فرنسا على ما يقال لان الملك ارغمه على الزواج. هل تصدقين مثل هذا الخبر الغريب ؟
هيلانة : نعم، بالطبع. هذه هي الحقيقة الناصعة، لاني اعرف زوجته.
ديانا : وفي خدمة الكونت وجيه يصفها باقبح النعوت.
هيلانة : ما اسمه، من فضلك ؟

ديانا : السيد بارول.

هيلانة : انا من رأيه، لأنها اذا قورنت بالكونت الكبير النفس، لا يوجد فيها ما يستحق الذكر، مع اني لم اسمع احداً ينفي ما تتصف به من فضيلة فائقة.

ديانا : يا للاسف يا سيدتي، ارى ان زواج امرأة برجل لا يحبها هي عبودية لا تطاق.

الارملة : لهفي عليها، اينما ذهبت ستكون كسيرة القلب (تشير الى ديانا) هذه الفتاة تستطيع ان تقوم حيالها بدور فعّال، اذا شاءت.

هيلانة : ماذا تقولين ؟ هل تظنين ان الكونت العاشق يتمناها كغنيمة غير شرعية.

الارملة : اجل، لانه لجأ الى من يتمكنون من اغرائها، لتجود عليهم بمتعة يرجونها من فتاة مثلها. لكنها علمت بمآربهم فرفضت كل عروضهم حفاظاً على عفتها.

(يدخل حملة طبول وهم يقرعونها، وحملة اعلام خفاقة، وفرقة من الجيش الفلورنسي بينهم برتران وبارول.

مريانا : حفظها الله من كل اذى.

الارملة : ها قد وصل الجنود. فهذا هو انطونيو ابن الدوق البكر، وذاك هو اسكالوس.

هيلانة : اجده شاباً رائعاً.

ديانا : لكنه مع الاسف غير شريف (تشير الى بارول). وهذا من يجرّه الى الفساد. لو كنت زوجة هذا الخسيس

لدسست له السم بدون تردد.

هيلانة : اياً منهما تعنين ؟

ديانا : هذا القرد الملفوف رأسه بالشال. لكن، لماذا هو هكذا حزين ؟

هيلانة : ربما بسبب جرح تلقاه اثناء المعركة.

بارول : وربما فقد طبله.

مريانا : لا بدّ من ان يكون مستاءً من أمر ما. انظريه كيف لاحظنا.

الارملة : تبّا لك (تنحني احتراماً لبارول).

مريانا : (للارملة) تباً لما تبديه من اعتبار حيال هذا الفاسق الدنيء (يخرج برتران وبارول مع الجنود).

الارملة : لقد مرّ الجنود. تعالي اذاً ايتها الزائرة لأدلّك على نزلك. هناك اربعة او خمسة تائبين قد نذروا ان يزوروا المعبد متبركين، وهم الآن هنا.

هيلانة : اشكرك بكل تواضع. (تشير الى مريانا وديانا) اذا كانت هذه الحيزبون وهذه الصبية الفاتنة ستتعشيان الليلة معنا، فانا اتكفّل بجميع النفقات والتشريعات. ولكي أفي بما يتوجب علي بصورة افضل، ازوّد هذه العذراء الشابة ببعض نصائحي الصائبة.

مريانا وديانا : نقبل دعوتك بطيبة خاطر.

المشهد السادس

في المعسكر الفلورنسي.

يدخل برتران واثنان من السادة الفرنسيين.

السيد الاول : هيا يا سيدي العزيز، اختبره ودعه يتصرف على هواه.

السيد الثاني : اذا كنت سيادتك لا ترى فيه انساناً جباناً، فلن يسعك ان تقدرني حق قدري.

السيد الاول : اقسم بحياتي يا مولاي، ان هذه قشطة صافية.

برتران : اتظنني مغشوشاً به الى هذا الحد.

السيد الاول : صدقني يا سيدي، اني اقول لك ما اعرفه مباشرة وبكل صراحة، كأني اخاطب اخي بالذات. هذا محتال جبان ومنافق لا يشق له غبار لا ينقطع عن الكذب والخداع ولا يتحلى باية مزية مشكورة تستحق ما يحيطه به سيدك من رعاية.

السيد الثاني : من الافضل ان تعرفه وإلا، اذا تكلمت عن صفات لا يتحلى بها. هو أتى بما هو افظع، وانت اوليته ثقتك، فاستغلّك ثم تخلّى عنك وانت في امسّ الحاجة اليه.

السيد الثاني : اوليس ذلك أولى من ان ندعه يذهب للبحث عن طبله في مهمة يعتدّ امامكم بالقيام بها بدون امهال.

السيد الاول : انا اترأس فرقة من الفلورنسيين، واتعهد بان اباغته على حين غرة. لذلك سأتكل على من هم اهل للثقة وكلي ايمان بانه لن يرى فيهم اي عداء. فنوثقه ونعصب عينيه بطريقة يظن معها انه انتقل الى معسكر العدو ساعة

نقوده الى خيامنا، بينما سيادتك تشرف على استجوابه. فاذا كان انقاذ حياته بداعي الخوف يؤكد لك انه لن يخونك او يبوح بما يعرفه عنا من معلومات سرية، وهو يقسم على صحة مضمونها، لا تحمل كلامي على محمل الجد ولا تثق بحكمي عليه.

السيد الثاني : دعه يأتي بطبله وهو يدّعي ان لديه خطة عجيبة، فنضحك عليه. وحالما ترى سيادتك عظم شجاعته ومن اي معدن هو الذي يظن نفسه انه من الذهب الخالص، اذا لم تعامله كغبي مغفل يكون تقديرك اياه في غير محله ولا يوجد لعلته دواء. ها هوذا.

(يدخل بارول).

السيد الاول : (لبرتران بصوت خافت) دعنا نضحك قليلاً، ولا تعترض على مقصده. فليذهب على كل حال لجلب طبله.

برتران : (لبارول) يظهر، يا سيدي، ان هذا الطبل عزيز جداً على قلبك.

السيد الثاني : لا تفكر بالامر كثيراً، فالمسألة لا تعدو كونها مسألة طبل ليس الا.

بارول : مسألة طبل ضاع هكذا، ويا لها من قضية جوهرية شغلت محمل الفرسان غالبية جنودنا.

السيد الثاني : القائد الذي كان يقود المعركة غير مُلام ابداً على فقدان هذا الطبلِ الذي يُعدّ كارثة حربية، لم يكن قيصر نفسه ليستطيع تحاشيها لو كان في موقف هذا القائد.

برتران : ليس لنا ان نشتكي من نجاحنا. صحيح أن خسارة هذا الطبل لا تشرفنا، انما لا سبيل الى الاستحصال عليه ثانية.

بارول : بل كان هذا ممكناً.

برتران : كان ذلك مستطاعاً. لكنه اضحى الآن مستحيلاً.

بارول : لا، لا. هذا لا يزال ممكناً. اذا لم يكن اصحاب الاعمال الباهرة مشكورين على فضلهم إلا نادراً، ساسترد هذا الطبل بطريقة عجيبة واحاول اعادته الى مكانه بسرعة على الاقل، مهما كلف ذلك من جهد وعناء. اجل سأقوم بهذه التجربة كانجاز نبيل. واذا نجحت فيها سيشكرك الدوق ويكافئك بصورة مرضية لائقة توازي براعة مسعاك.

بارول : اقسم لك اني سأنفذ ذلك على اكمل وجه.

برتران : لكن لن يبقى لك وقت للنوم.

بارول : سأباشر العمل منذ هذا المساء. وسأبدأ منذ هذه اللحظة بتدبير وسائل العمل وشحذ كفاءتي لإكمال استعداداتي للفوز. وحول منتصف الليل لا بد من ان تبلغك اخباري السارة.

برتران : هل يسعني اعلام سيادته برحلتك الجريئة ؟

بارول : انا اجهل ما هو مدى نجاحي، يا مولاي، انما اعاهدك على مثابرتي ومحاولتي بدون كلل للوصول الى ما نصبو اليه.

برتران : انا اعرف علو همتك، واقدر مهارتك وشجاعتك. فالى اللقاء.

بارول : انا لا احب كثرة الكلام. (يخرج).

السيد الاول : ليس من يحب الماء اكثر من السمك. اولا يكون هذا الفتى مقداماً عندما يتكفّل بتأمين مثل هذه المهمة التي يعرف سلفاً انها تفوق طاقته ويتحمل مسؤوليتها ويفضّل ان يتلقى عليها اللعنة عوضاً عن التهرب من اعبائها.

السيد الثاني : انت لا تعرفه يا سيدي كما اعرفه انا الواثق ببراعته بدون شك في التغلغل الى قلب اي رجل، والتملص خلال اسبوع من كل الوشايات. انما حين نكتشفه على حقيقته يظل على الدوام تحت رحمتنا.

برتران : هل تصدّق انه لن يفعل شيئاً من كل ما وعد بتنفيذه جدّياً ؟

السيد الاول : ابداً. سيعود الى سيرته السابقة باختلاقات يدعمها بالكذب والغش كعادته. لكننا نحن له بالمرصاد. وهذه الليلة سينكشف امره وتراه كيف يقع في الفخ لأنه لا يستحق عطف سيادتك.

السيد الثاني : سنتسلى بمطاردته كالثعلب قبل ان نعرّيه من حيله. فلقد نال نصيبه من تأنيب السيد لافو. وعندما سنسلخ جلده المستعار عن لحمه النجس ستلمس هذه الليلة بالذات لمس اليد اي دجله اللعين المتربص بنا.

السيد الاول : عليّ ان اذهب واهيىء شركي لكي نوقعه فيه.

برتران : لا بد لشقيقك من مرافقتي.

السيد الاول : كما تشاء يا صاحب السيادة. تركتك بخير. (يخرج).
برتران : الآن آخذك الى البيت واريك الفتاة التي حدثتك عنها.
السيد الثاني : تقول لي انها صبية شريفة.
برتران : هذه علتها الوحيدة. فقد كلمتها مرة ورأيتها باردة بشكل عجيب. فأرسلت اليها مع هذا المغرور الذي نراقبه، هدايا ورسائل، فردتها لي. هذا كل ما فعلته حتى الآن. الا تريد ان تصحبني لمشاهدتها ؟
السيد الثاني : بكل سرور، يا مولاي. (يخرجان).

المشهد السابع

في فلورنسا داخل بيت الارملة.

تدخل هيلانة والأرملة.

هيلانة : اذا كنت لا تزال تشك بتأكيدي اني زوجته، لست ادري كيف اقنعك بدون ان اخسر ما ربحته في هذا المجال.
الارملة : مهما كانت خسارة ثروتي جسيمة، انا استعيض عنها برفعة شأني، واتجاهل كل الدسائس والمؤامرات. لذلك لا اريد تشويه سمعتي بعمل مشين.
هيلانة : وانا لن اطلب منك ذلك ابداً. ثقي اولاً بان الكونت زوجي، وان ما صرحت لك به هو حقيقي بحذافيره، وان يكن سرياً. ثقي اذاً بان المساندة التي اطلبها منك لا يمكن ان تؤول الى الفشل.

الارملة : عليّ ان اصدقك، لانك اثبت لي ان حظك كبير في النجاح.

هيلانة : خذي هذا الكيس المحشو ذهباً، فهو عربون تقدير مساعدتك الغالية. وانا مستعد لان ادفع لك ضعفه مع الفائدة حالما احصل على النتيجة المرجوة. الكونت يغازل ابنتك ويحاصر جمالها من كل الجهات، وهو مصمم على الظفر بمفاتنها. فما عليها إلا ان تتظاهر بالموافقة على مسايرته حسب تعليماتنا. وعندما تطغى عليه اشواقه اخيراً، لن يرفض لها طلباً. فالكونت يضع في اصبعه خاتماً ثميناً توارثه اسرته اباً عن جد منذ اربعة او خمسة اجيال نظراً الى ما لهذا الخاتم من قيمة باهظة. لكنه في حماسه وهوسه لا يستبعد ان يعطيه بدون مساومة، كما تقتضيه الظروف، ثم يندم بعد ذلك على تصرفه وتسرعه.

هيلانة : طلبه مشروع، كما ترى. فقط اريد من ابنتك قبل ان تبدي رغبتها في الاستسلام ان تلح في طلب خاتمه وان تعيّن له موعداً. واخيراً ان تخلي المكان وهي تفرض على ذاتها اعفّ انسحاب، وبعد هذا الاجزاء اضيف الى بائنتها ثلاثة آلاف دينار فوق ما كنت اعطيتها.

الارملة : انا موافقة. درّب اذاً ابنتي على كيفية تصرفها كي تتمكن من القيام بهذه اللعبة القذرة بنجاح في الزمان والمكان اللازمين. ففي كل مساء يأتي برفقة بعض

الموسيقيين من جميع الفئات لإنشاد بعض الاغاني التي تشيد بجمالها وبخصالها بطريقة مبالغة. اذ لا فائدة من طرده عن نوافذنا لانه يظل متشبثاً كأن حياته متعلقة بها.

هيلانة : منذ هذا المساء سنحاول تنفيذ المؤامرة. فان نجحت يكون قد ظهر ما يبيّته من سوء نية يتبعها عمل جدي رصين من جهة، ومن حسن نية يتبعها على الارجح عمل جدي ايضاً. وفي كلا الحالين ليس من خطأ رغم احتمال وقوع الغلط. فإلى العمل اذاً. (تخرجان).

الفصل الرابع

المشهد الاول

في معسكر على ضوء القمر.

يدخل السيد الاول يتبعه خمسة او ستة جنود ويختبئون في كمين.

السيد الاول : لا يمكن ان يأتي إلا من هذه الناحية من السياج. وحالما تباغتونه، خاطبوه بأقسى لهجة من السباب تعرفونها، وان لم تفهموا لغته، لاننا ننوي ان نتظاهر بعدم فهمها ما عدا واحد منا سنعتبره كترجمان.

الجندي الاول : اسمح لي يا سيدي ان اكون انا الترجمان.

السيد الاول : ألم يكن لك من علاقة سابقة به ؟ ألا يعرف صوتك ؟

الجندي الاول : كلا يا سيدي. أؤكد لك اني لا اعرفه.

السيد الاول : بأي لغة غير مفهومة سنجيبه ؟

الجندي الاول : بلغة نخترعها لهذه الغاية.

السيد الاول : لا بد من ان نوهمه اننا عصابة اجنبية نعمل لحساب العدو. وهذا له ألوان متعددة من اللهجات المتقاربة. فعلى كل واحد منّا ان يتكلم بلهجة مختلفة على هواه

بدون ان نعرف ماذا نقول، بشرط ان نتظاهر باننا نتفاهم، وهذا يكفي لتحقيق مشروعنا، حتى ان كان كلامنا كنعيب الغراب، المهم ان نصل الى مبتغانا. اما انت فعليك ان تظهر بمظهر سياسي محنّك، لا سيما بغطرستك وعنجهيتك. ها هوذا قد عاد ليقضي ساعتين في نوم عميق، ثم يعود ليغدق على الجماعة سيل كذبه وسبابه وخداعه، حسب ما يوحي اليه دهاؤه وابتكاره.

(يدخل بارول)

بارول : الساعة الآن العاشرة. بعد ثلاث ساعات يحين اوان رجوعه. ماذا اقول له اني فعلت ؟ لا بد من اختلاق اعذار مقنعة. ها هو قد أخذ يشم رائحة الخيبة والمذلة التي بدأت تطرق بابه. لا شك في ان لهجتي ستكون قاسية. لكن قلبي، بعد ان اوهمته اني خائف من مباغتات إله الحرب ومن اعوانه، لا يجرؤ على مساندة ادعاءات لغتي المبهمة.

السيد الاول : (على حدة) هذه مقدمة لهجتك الجانية.

بارول : اي شيطان دفعني لاختلاق قصة هذا الطبل الضائع، لا سيما انا اجهل قضيته ولا اعرف بالضبط نواياه. يجب عليّ ان اصطنع لنفسي بعض الجراح وان ادعي اني تلقيتها اثناء المعركة. انما الجراح الخفيفة لا تفيدني، اذ يقال لي : هل خرجت من المعمعة بخدوش بسيطة ؟ ولا اجرؤ ايضاً على اصطناع جراح بليغة. فما العمل ؟ من اين آتي بالبراهين ؟ لا بد من ان اصون لساني ولا

اتفوّه بما يثير الشبهات حولي، بل اتذرع بصمت حذر، اذا تورطت بموقف حرج.

السيد الاول : (على حدة) هل من المحتمل ان يعرف من هو، وان يقابله بمثل تصرفه ؟

بارول : اتمنى ان يكون تمزيق ثيابي كافياً نظير كسر سيفي الاسباني.

السيد الاول : (على حدة) لا يسعنا ان نؤمن لك ذلك.

بارول : اذاً سأحلق لحيتي وادّعي ان ذلك خدعة حربية.

السيد الاول : (على حدة) لن تنطلي هذه الحيلة.

بارول : أو أن ادفن ثيابي وادّعي ان لصوصاً عرّوني اثناء الطريق.

السيد الاول : (على حدة) قد لا تفيد هذه الوسيلة.

بارول : واذا اقسمت باني نفذت من كوّة القلعة...

السيد الاول : (على حدة) من اي علوّ ؟

بارول : من علوّ ثلاثين باعاً.

السيد الاول : (على حدة) الحلفان المثلث لا يحمل احداً على تصديق ذلك.

بارول : ان احصل على اي طبل من طبول العدو، وأقسم باني انا انتزعته.

السيد الاول : (على حدة) ستسمع قرع احدها في الحال (يُقرع طبل).

بارول : هذا الآن طبل عدو.

السيد الاول : (يهجم على بارول) تروكا مافوسو كاركو كاركو كاركو.

الجميع : (يهجمون) كاركو كاركو فيليان بار كاربو كارلو.

بارول : النجدة النجدة. (يقبض عليه الجنود ويعصبون له عينيه) لا، لا تعصبوا لي عينيّ.

الجندي الاول : بوسكو تروفولدو بوسكو.

بارول : ارى انكم فرقة من جنود التتر. اسفاً على حياتي، لأني لا افهم لغتكم. إن وجد بينكم ألماني او دانمركي او هولاندي او ايطالي او فرنسي ارجو ان يخاطبني بلغته، وسأبوح له باسرار تهلك الفلورنسيين.

الجندي الاول : بوسكو فوفادو. انا افهمك واتكلم لغتك كيريليبونتو. يا صديقي، ابتهل لربك وتضرع اليه، لان سبعة عشر خنجراً ستخترق صدرك وتمزق قلبك.

بارول : يا الهي.

الجندي الاول : اجل ابتهل وتضرّع. منكا ريفانيا دولشي.

السيد الاول : أشكوربي دولشو فوليبوركو.

الجندي الاول : القائد يوافق على ابقائك حياً. وسنأخذك اليه معصوب العينين لكي يتقصّى معلوماتك. فربما لبعض ما توحيه اليه يعفو عنك.

بارول : اتركوني على قيد الحياة، وانا اطلعكم على اسرار معسكرنا، وعلى قواتنا وخططنا. اجل ساطلعكم على امور تدهشكم.

الجندي الاول : المهم ان تقول الحقيقة.

بارول : اذا شككتم بكلامي، تستطيعون قتلي.

الجندي الاول : اركوندو لينتا. هيا بنا. سنمنحك مهلة (يخرج

مصطحباً بارول تحت الحراسة).

السيد الاول : (لأحد جنوده) اذهب وقل للكونت روسيّون ولأخي، اننا القينا القبض على الثرثار، واننا سنحتفظ به معصوب العينين الى ان تصلنا اخبارهم.

الجندي الثاني : انا ذاهب يا سيدي.

السيد الاول : لا تغفل عن اعلامهم بانه مستعد أن يخون جماعته لارضائنا.

الجندي الثاني : نعم، يا سيدي.

السيد الاول : حتى ذلك الحين ساحتفظ به في مكان حريز وتحت الحراسة المشددة (يخرجون).

المشهد الثاني

في فلورنسا داخل غرفة في بيت الارملة.

يدخل برتران وديانا.

برتران : قيل لي انك تدعيني فونتيبال.

ديانا : لا يا سيدي الكريم، انا اسمي ديانا.

برتران : هذا اسم إلهة وانت تستحقينه مع كل النعوت الجميلة. لكن يا صاحبة النفس الكبيرة، ألم يداعب الحب قلبك الحنون ؟ اذا لم يخالج حماس الشباب صدرك الى الآن تكونين فتاة غريبة بل تمثالاً من الحجر البارد الخالي من العواطف، وعليك ان تتشبهي بوالدتك حين حبلت بشخصك اللطيف.

ديانا : كانت امي اذاً فاضلة.

برتران : وانت ستكونين مثلها.

ديانا : كلا، كانت والدتي تقوم بواجب كما هو مفروض عليك نحو امرأتك يا سيدي.

برتران : ارجوكِ ان تكفي عن هذا الكلام. لا تعارضي افكاري. انا ارتبطت بها عنوة. لكن احبك انت باخلاص، تدفعني اليه انوثتك وتجعلني رهين اشارتك لاخدمك راضياً مسروراً.

ديانا : اجل انتم الرجال تخدموننا لنخدمكم بدورنا. لكن حين تتنشّقون شذى ورودنا لا تتركون لنا سوى اشواكها لتمزق ايدينا، وتعيّروننا بما تجرّدوننا منه.

برتران : كم مرة اقسمت لك...

ديانا : الاخلاص لا يقوم على عدد الحلفان، انما على المعاملة البسيطة البريئة التي تخصّوننا بها. نحن لا نقسم إلا بكل مقدس، ورب السما يشهد على صدق نيتنا. لكن قل لي ان اقسمت بكل ما هو سامٍ باني احبك من كل قلبي، هل تصدقني ولوَ لاحظت اني اهواك بطريقة اجرامية ؟ فالحلفان ليس مقبولاً اذا تعهدت باسم من اعبده باني سأتصرف خلافاً لشرائعه. هكذا قسمك ليس الا كلام، واحتجاجاتك هزيلة ينقصها الطابع الاصيل، على الاقل في نظري.

برتران : التمس منك ان تغيّري رأيك فيّ، وان لا تكوني هكذا قاسية في حكمك علي فحبي مقدس ووفائي لا يعرف

التكلّف الذي يتهم به الرجال. فلا ترددي بل بادليني عواطفي المريضة لكي تصح، قولي لي انك لي، وسيدوم حبي لك كما بدأ نزيها مخلصاً.

ديانا : انا ارى ان الرجال لا يصدقون في مثل هذه القضايا، واننا نخدع انفسنا اذا اعتبرناهم صادقين. اعطني هذا الخاتم كعربون مودتك لعله يقنعني بحسن نيتك.

برتران : ساعيرك اياه يا عزيزتي، لاني لا املك الحق بالتنازل عنه.

ديانا : انت لا تريد اعطائي اياه، يا مولاي.

برتران : هذا شعار شريف يخص اسرتنا، وقد ورثته عن ابي وجدي، وعار علي ان افقده.

ديانا : بتوليتي تشبه خاتمك، وعفتي هي جوهرة اسرتنا وقد ورثتها عن امي وجدتي وفقدانها سيكون افظع عار الوّث به سمعتي. وهكذا ارى ان تحفظك تحميس لحذري في صدّ هجماتك المتكررة.

برتران : هيّا خذي بخاتمي. فانا اهبك شرفي وقلبي وحياتي واطيع اوامرك.

ديانا : (تأخذ الخاتم الذي يناولها اياه برتران) عند حلول منتصف الليل، اطرق نافذة حجرتي، وسأتدبر امر دخولك بشكل لا يدع امي تدري بوجودك، لكني احذرك باسم الوفاء، حين تندس في فراشي الطاهر ان لا تمكث فيه اكثر من ساعة وان لا تنبس ببنة شفة. ولطلبي هذا اسباب قاهرة ستقف عليها عندما ارد لك

هذا الخاتم. في هذه الليلة سأضع في اصبعك خاتماً يثبت لك في مستقبل الايام اجتماعنا هذا. الوداع الآن. لا تتأخر، فقد ربحت بشخصي زوجة وفية، وانت تحرمني من كل امل في البقاء مخلصة.

برتران : في احضانك اجد الجنة على وجه الارض. (يخرج).

ديانا : (وحدها) ارجو ان تعيش لتشكر الله وتشكرني. لاننا حتماً نجتاز مرحلة دقيقة. فوالدتي انبأتني بالطريقة التي سيغازلني بها مالك قلبي. وقد اكّدت لي ان جميع الرجال يقسمون على الوفاء، وقد اقسم هو ايضاً ان يتزوجني عندما تموت امرأته. وانا راضية بان استريح بقربه عندما ادفن في بطن الارض. وبما ان الفرنسيين هم خداعون الى هذه الدرجة، فليقترن بمن يشاء لاني اريد ان اغشه وأصبح هكذا خائنة حقيرة (تخرج).

المشهد الثالث

في خيمة ضمن المعسكر الفلورنسي ينيرها مشعل موضوع على مائدة.

يدخل سيدان فرنسيان يتبعهما ثلاثة جنود.

السيد الاول : الم تسلمه رسالة والدته ؟

السيد الثاني : اجل اعطيته اياها منذ ساعة. وقد قرأ في سطورها ما قلب مزاجه رأساً على عقب كأنه امسى رجلاً آخر.

السيد الاول : لقد جلب على رأسه ملامة استحقها برفضه زوجة صالحة وسيدة رائعة.

السيد الثاني : وعرّض نفسه لاستياء الملك الذي حجب عنه رضاه ورعايته الوارفة. ساطلعك على امر ستحفظه في اعماق صدرك.

السيد الاول : عندما تقوله لي سأحرص على ابقائه في سرّي، كأنه في صندوق مقفل.

السيد الثاني : لقد استمال هنا في فلورنسا سيدة صبية، عفيفة نقية، بعد أن اعطاها خاتمه الذي ورثه عن اجداده، لانه يعتبر نفسه اسعد الرجال بهذا الحب المشبوه.

السيد الاول : وقانا الله شر الضلال لأن اوضاعنا ليست على ما يرام.

السيد الثاني : نحن خونة بحق انفسنا. وكما يجري في سائر المؤامرات، نرى الدساسين يتحادثون فيما بينهم عن آمالهم ومراميهم حتى يروا نواياهم تنقلب عليهم ويرتدّ كيدهم الى نحرهم. وهكذا ستشقيه مكيدته الخاصة إذ ينزل به الويل ويتدهور نبله الى الحضيض ويذيع سره المخذي.

السيد الاول : اولا تدور في رؤوسنا دسيسة خفية سافلة تفسر نوايانا الشريرة. اعتقد بانه لن يكون هذا المساء بصحبتنا.

السيد الثاني : لن يتسنى له ان يوافينا إلا بعد منتصف الليل. لانه مرتبط بموعد في ساعة متأخرة.

السيد الاول : وهذه الساعة تقترب بسرعة فائقة. على كل حال يسرني ان يحضر مناقشة رفيقه، ليأخذ فكرة عن حكمة الشخص بعد تقديره كثيراً هذا البطل المزيف.

السيد الثاني : لن نهتم بهذا الرجل قبل وصول الكونت، لان حضوره يسحق قلب هذا الشقي.

السيد الاول : بانتظار ذلك، ارجوك ان تفيدني عن مجرى الحرب.

السيد الثاني : سمعت انه مهّد الطريق الى تحقيق السلم.

السيد الاول : لذلك استطيع ان اطمأنه بان الصلح قد تمّ.

السيد الثاني : وماذا يفعل كونت روسيون عندئذٍ ؟ هل يسافر الى مكان آخر ام يعود الى فرنسا ؟

السيد الاول : ألاحظ من هذا السؤال انك غير مطلع على مشاريعه.

السيد الثاني : بل بالعكس، يا سيدي، انا مشترك فعلياً في جميع اعماله.

السيد الاول : منذ شهرين يا سيدي، هربت زوجته من قصره بحجة قيامها بزيارة احد المعابد، وتمّت هذه الزيارة بخشوع لا يوصف، وفيما هي تقضي هنا بعض الوقت تعرضت نفسيتها الى أقسى التجارب وذهبت ضحية حزنها وفارقت الحياة اخيراً، وهي ترتع الآن في الاخدار السماوية.

السيد الثاني : ماذا يثبت صحة ما تقول ؟

السيد الاول : اولاً رسائلها التي تؤكد حكايتها حتى حين وفاتها. وموتها ذاته الذي لم تستطع ان ترويه، قد اكده كاهن تلك المنطقة.

السيد الثاني : وهل علم الكونت بامرها ؟

السيد الاول : اجل، بكل التفاصيل الخاصة التي تبرهن على صدق الحقيقة.

السيد الثاني : وما يمزق قلبي أسىً هو انه مسرور لحدوث ذلك.

السيد الاول : كم نستعجل احياناً في تعزية انفسنا، بالتشفي من شقاء قلوبنا.

السيد الثاني : وكم نستعجل ايضاً رؤية شقائنا من خلال دموعنا، فنبل سمعته هنا يطغي على شر سلوكه المشين هناك.

السيد الاول : لا تنسى ان نسيج حياتنا سداه الخير ولحمته الشر، وان فضائلنا تتشامخ علينا اذا لم تجلدها سياط التوبة عن ذنوبنا، وان فضائلنا ترزح تحت وقر قنوطنا اذا لم ترتفع بها مآثرنا الى فوق.

(يدخل احد الخدم).

اين سيدك، يا هذا ؟

الخادم : صادف الدوق في طريقه واستأذنه بالانصراف. وسيرحل سيادته غداً الى فرنسا بعد ان تكرم الدوق عليه برسائل توصية الى الملك.

السيد الثاني : ستسعفه التوصية كما يلزم عندما تكون ملحّة.

(يدخل برتران).

السيد الاول : الملك مستاء الى درجة ان لا شيء يخفف حنقه. ها هو صاحب الجلالة. قل لي، هل اجتزنا منتصف الليل يا مولاي.

برتران : حكمت هذا المساء بايجاز في ست عشرة قضية كانت تستغرق كل واحدة منها شهراً كاملاً. استأذنت الدوق بالانصراف وودعت ذويّ ودفنت امرأتي ولبست عليها ثياب الحداد وكتبت الى سيدتي الوالدة اني عائد

واكملت استعدادات رحيلي ورتبت هذه الطرود الكبيرة وارسلت عدة اشياء ضرورية وكان آخرها اهمّها، لكنها لم تصل بعد.

السيد الثاني : مهما كانت المسألة صعبة، اذا كنت جلالتك تنوي ان تبارح هذا المكان اليوم صباحا، عليك ان تعجل في الرحيل.

برتران

يرضي في المستقبل. هل سيبلغنا قريباً ما نترقبه من حوار بين الجندي وهذا الجبان ؟ هيا اكشف لي حقيقة هذا المولى المزيّف الذي خدعني اذ ليس كل ما يبرق ذهباً.

السيد الثاني : (لبعض الجنود) خذوه. (يخرج الجنود) هذا الفتى المسكين قضى الليل بطوله بين شجيرات العنب فسكر.

برتران : هذا امر بسيط. لقد نالت من قدميه شدة الارهاق، بعد أن اعمل طويلاً مهمازيه ببطن جواده فجمح به. كيف حاله الآن ؟

السيد الاول : سقط كما اخبرت بذلك سيادتك، وهذه الشجيرات ساعدته. انما لكي اجيبك حسب رغبتك اقول انه ينوح كفلاّحة دلقت كل حليبها على الارض. فلقد اعترف باخطائه وذنوبه لموركن الذي ظنه راهباً، منذ ذكرياته الاولى حتى الساعة المشؤومة التي استقر فيها على هذه الشجيرات. فبماذا تظنينه قد اعترف ؟

برتران : بشيء لا يمسني، أليس كذلك ؟

السيد الثاني : انا كتبت اقراري وسيتلى عليه. فاذا كان الامر يتعلق بسيادتك كما اعتقد، ما عليك إلا ان تكون طويل البال

حتى تسمع كل ما تشاء. (يعود الجنود وبرفقتهم بارول معصوب العينين).

برتران : قتله الطاعون. عيونه معصوبة. اذاً لا يمكنه ان يقول كلمة واحدة عني. لنلزم الصمت.

السيد الاول : احذر لعبة المطرقة والسندان. كراشو ترطاسا.

الجندي الاول : (لبارول) هو يطلب تعذيبك. ماذا انت مستعد ان تقول بدون اشراكه في الكلام.

بارول : سأبوح بما اعرف بدون ان يجبرني احد، واذا سحق لحمي كالمرهم لن افوه بحرف واحد.

الجندي الاول : بوسكو سيموركو.

السيد الثاني : بوبليندو شيكورموركو.

الجندي الاول : (يأخذ ورقة) انت قائد حكيم. ضابطنا يأمرك بالاجابة على الاسئلة التي سأطرحها عليك بموجب هذه المذكرة.

بارول : سأجيب عليها بصراحة لا يمكن الشك فيها كأملي في الحياة.

الجندي الاول : (يقرأ) اسأله اولاً ما هو عدد فرسان الدوق ؟ وما هو رأيك فيهم ؟

بارول : لديه خمسة او ستة آلاف حصان، لكنها متعبة وليست صالحة للخدمة. وجنوده كلهم مشتتون ورؤساؤهم جماعة من المساكين الحائرين. اقسم لك بشرفي وبحياتي التي اتشبث بالمحافظة عليها باني اقول الحق.

بارول : اجل، اقسم باني لا اقول سوى الحق مهما عرضت عليّ. (يكتب الجندي).

برتران : (للسيد الاول بصوت خافت) لا شيء يهمه. تبّا له من محتال مكّار.

السيد الاول : (لبرتران بصوت خافت) انت مخطىء يا سيدي. هذا الرجل الماثل امامك اسمه بارول، هذا الجندي الباسل كما يقول هو عن نفسه، يحمل كل مشاكل الحرب في طيّة شاله، وكل خبرته في قراب خنجره.

السيد الثاني : (بصوت خافت) من الآن وصاعداً لن اثق بأي انسان لمجرّد نظافة نصلته، ولن اصدق اقواله لمجرد اناقة ثيابه.

الجندي الاول : هذا مكتوب.

بارول : اجل، اكرر خمسة او ستة آلاف حصان او ما يقارب هذا العدد. اكتب تقريباً، لاني لا اريد ان اقول إلا الحقيقة.

السيد الاول : (لبرتران بصوت خافت) قوله اقرب ما يكون الى الواقع.

برتران : (للسيد الاول بصوت خافت) لكني لا اقدّر ابداً صراحة من هذا النوع.

بارول : (للجندي الاول) أوصيتك يا مسكين ان لا تنسى شيئاً.

الجندي الاول : هذا ايضاً مكتوب.

بارول : اشكرك بتواضع يا سيدي. فالحقيقة واحدة لا تتغير. وهؤلاء هم في الواقع مساكين.

الجندي الاول : (يقرأ) اسأله ما هو عدد الخيالة ؟ وما هو رأيه فيهم ؟

بارول : لعمري، انا لا اقول سوى الحق ولو بقي من عمري ساعة واحدة فقط. هيّا اكتب، سبوريو : مئة وخمسون، سيبستيان : مثله، كورمبوس : مثله، يعقوب : مثله، كيلْتيان وكوسمو ولودفيك وكراتيي، كل واحد منهم : مئتان وخمسون. وفرقتي انا شينوفر، وفوموند، وبنتيي كل واحد منا مئتان وخمسون. فيكون المجموع خمسة عشر الفاً، نصفهم لا يجرؤ على السقوط رغم خوذهم، مخافة ان يتهشموا الى مئات القطع المتناثرة.

(الجندي الاول يكتب).

برتران : (للسيد الاول بصوت خافت) ما هو مصيره ؟

السيد الاول : (لبرتران بصوت خافت) الشكر على معلوماته القيمة. (بصوت خافت للجندي) اسأله عن اخلاقي، ثم عن مكانتي لدى الدوق.

الجندي الاول : كتبت كل هذا. (يقرأ) اسأله ايضاً اذا كان في المعسكر رجل فرنسي يدعى الضابط دوماين، ثم ما هي سمعته وما هي معنوياته وادبياته وخبراته في الحرب، واذا كان يعتقد بامكان تحريضه بالذهب الرنان على الثورة والعصيان. وما رأيه بذلك ؟ وماذا يعرف عنه شخصياً ؟

بارول : استحلفك بان تسمح لي في هذا المجال ان اجيب عن كل سؤال على حدة بنداً بنداً.

الجندي الاول : هل تعرف الضابط دوماين ؟

بارول : اجل اعرفه جيداً. كان متمرناً عند رجل يتعاطى اشغال الرفو في باريس وكان نصيبه الطرد، لأنه اعتدى على فتاة قاصرة من دار رئيس الشرطة فحبلت منه وهي خرساء مغفلة لم تستطع صدّه.

(يهدد السيد الاول الغاضب بارول بقبضة يده).

برتران : (للسيد الاول بصوت خافت) العفو، جمّد يدك الآن، فربما سقطت قرميدة على رأسه وانتقمت لك منه.

الجندي الاول : وهل هذا الضابط موجود حالياً في معسكر دوق فلورنسا ؟

بارول : على ما اعلم، هذا الصعلوك الذي يأكل القمل بدنه، هو الآن هناك.

السيد الاول : (لبرتران بصوت خافت) لا تنظر اليّ هكذا شذراً، ستسمع في الحال ما يخص سيادتك.

الجندي الاول : (لبارول) ما هو وضعه بالنسبة الى الدوق ؟

بارول : الدوق لا يعرفه إلا كضابط مسكين تحت إمرته. وفي ذلك النهار كتب اليّ لكي اطرده من الفيلق. وأظن ان الرسالة لا تزال في جيبي.

الجندي الاول : لعمري، لا بدّ من البحث عنها. (يتقدم نحو بارول وينبّشه).

بارول : لنتكلّم جدياً. لم اعد ادري اين وضعتها بالضبط، اهي هنا ام في خيمتي ؟ ربما في ملف مع سائر رسائل الدوق.

الجندي الاول : (يسحب ورقة) ها هي الورقة. اتريد أن أقرأها لك ؟

بارول : لست ادري إن كانت هذه هي الورقة ·بالذات او لا.

برتران : (للسيد الاول بصوت خافت) كيف يقوم ترجماننا بوظيفته ؟

السيد الاول : على احسن ما يرام.

الجندي الاول : (يقرأ) الكونت، يا ديانا، رجل احمق، محمل ذهباً.

بارول : هذه ليست رسالة الدوق يا سيدي. هذا تنبيه موجّه الى فتاة شريفة من فلورنسا، من قبل كونت روسيون، الرجل الغبي الفاسق المهووس. ارجوك ان ترد لي هذه الورقة.

الجندي الاول : لا، إسمح لي أوّلاً ان اتمّ قراءتها.

بارول : انا احتج، لاني اريد هنا ان اكون اكثر احتراماً نحو الفتاة. فانا اعرف الكونت الشاب، وهو خطر جداً، لأنه يشبه الحوت الذي يفترس البتولات كالسمكة الكبيرة التي تبتلع كل سمكة صغيرة تصادفها في طريقها.

برتران : (على حدة) تبّا له من محتال لعين.

الجندي الاول : ان كان يغدق على الناس وعوده العرقوبيّة، قل له ان يترك الذهب، جانباً، لانه قلما يدفع ثمن ما يأكل. اما الصفقة التي يصبو اليها، فلكي تتمّ يجب ان يتحقق نصفها على الاقل. فما عليه الاّ أن يعمل، ثم يعقد الصفقة. وما دام لا يدفع اي عربون، دعه يدفع سلفاً كل القيمة. اخيراً، صدقيني انا الجندي، يا ديانا، وتعاطي مع الرجال، واياك ان تعانقي الاولاد. اتكلي على الكونت المغفل لاني اعرف جيداً انه يدفع سلفاً كما قلت لك،

لكن ليس في الوقت اللازم، كما همس لك في اذنك ».

التوقيع : بارول

برتران : (على حدة) سيجلد امام افراد الجيش، وعلى جبينه هذه الأقوال الخبيثة.

السيد الثاني : (على حدة) هذا يا سيدي، هو صديقك المخلص العالم المتعدد اللغات والجندي المعتدّ بمقدرته.

برتران : (على حدة) الى الآن لم اكره الا الذئاب، وهذا الرجل في نظري ذئب شرس.

الجندي الاول : (لبارول) ألاحظ يا سيدي، من محيا القائد ان انضمامك الى صفوفنا يسرّه كثيراً.

بارول : انا يا سيدي، اتشبث بحياتي واحافظ عليها بأي ثمن، لا لأني اخشى الموت، بل لان ذنوبي عديدة، واريد ان اقضي باقي العمر بالتوبة والتكفير عنها. فاتركني على قيد الحياة يا سيدي، في السجن، أو مربوطاً الى عمود، حيث تشاء. المهم ان اعيش.

الجندي الاول : سنرى ما يمكن عمله اذا واصلت اعترافاتك بصدق وبدون تحفظ. لنعد الى الضابط دوماين. لقد أفدتني عن مكانته لدي الدوق وعن مهارته. فماذا تعرف عن اخلاقه ؟

بارول : هو رجل لا يتورع عن سرقة البيضة من تحت الدجاجة. كذلك لا شيء يردعه عن الاغتصاب والخطف. وهو لا

يفي بوعوده ولا يمنعه شيء عن نقض عهوده وايمانه. يكذب بسهولة كأنه يقول الحقيقة، ويدمن على السكر كأنه فضيلة، وهو دوماً ثمل قذر كالخنزير، يصبح ويمسي على عمل الشر دون ان يحجم عن زرع الفساد وارتكاب الموبقات. عاداته معلومة ولا مزيد لسفالته ولقلة مروءته. بالاختصار فيه من النقائص كل ما في الرجل اللئيم، وليس فيه اية مزية حميدة تشفع بمعاصيه.

السيد الاول : (على حدة) بت اودّ معرفته بسبب ما ذكرته لي عنه.

برتران : (على حدة) لأجل هذه الاوصاف التي لا تشرفه ! قتله البرص. انا اراه شبيه الذئاب تماماً.

الجندي الاول : (لبارول) وماذا تقول عن خبرته في فنون الحرب ؟

بارول : بذمتي يا سيدي، اؤكد لك انه قرع الطبل امام المهرجين الانكليز. ولا اريد ان اضيف اليه اية نميمة. هذا كل ما اعرفه عن خبرته العسكرية. مع ذلك، في هذا البلد، مكان يدعى « مايل اند » خدم فيه كضابط لجمع الجنود في فرقة البهلوانيين. هكذا اردت ان اكرمه بقدر ما يستحق، في هذا المجال، ولست ادري ان كنت وفيته حقه.

السيد الاول : (على حدة) ارى الغيظ يلازمه الى حد انه يجمع الشرور في قبح سلوكه.

برتران : (على حدة) قتله الطاعون. هو في نظري ليس إلا ثعلب مراوغ غدار.

الجندي الاول : (لبارول) بما ان صفاته هكذا سيئة فلا غنى لي عن

سؤالك اذا كان الذهب يغرّه ويدفعه الى الثورة والتمرد ؟

بارول : نظراً الى خسة طبعه يبيع خلاصه بربع دينار، فيتخلى عن الجنة ويحرم منها احفاده الى الابد.

الجندي الاول : وماذا تقول عن اخيك الضابط الثاني دوماين ؟

السيد الثاني : (على حدة) لماذا تراه يسأله عني ؟

الجندي الاول : (على حدة) ما صنف هذا الرجل ؟

بارول : هو غراب من نفس الفصيلة، لا يساويه ابداً في الخير بل يفوقه شراً وفساداً. وكجبان، يسبق اخاه، مع ان هذا الاخير شهير بخساسته. ففي التراجع والفرار لا جبان يضاهيه، اما في الهجوم فقدماه تتسمّران في الارض على الدوام.

الجندي الاول : اذا أنقذنا حياتك، هل تتعهد بخيانة الفلورنسيين ؟

بارول : نعم، مع ضابط الفرسان كونت روسيّون.

الجندي الاول : سأبادل القائد بضع كلمات بصوت خافت لأعرف ما هو قراره ؟

بارول : (على حدة) لا اريد أن يكلمْني احد بعد الآن عن الطبل. سحقاً لجميع الطبول. انما لكي اخدم هذا الكونت الشاب المتهتك واوصي اليه بالثقة، قد القيت بنفسي في المهالك. لكن، من كان يفكر بنصب مثل هذا الكمين الذي اوقعني في الفخ ؟

الجندي الاول : لا خلاص لك يا سيدي، يجب ان تموت. يقول القائد : بما انك حنثت بيمينك وبحت بجميع اسرار

الجيش وبينت للعدوّ اعداد المحاربين وكشفت هكذا عن طبيعة سلاح النبلاء، فانت لا تتحلى بأي شرف في هذه الدنيا. وبالنتيجة يجب ان تموت. هيا، يا جلاد اقطع رأسه.

بارول : يا الهي. دعني على قيد الحياة يا سيدي. دعني انتظر ساعة وفاتي.

الجندي الاول : (يعصب له عينيه) شاهد الآن موتك يا مسكين وودع اصدقاءك ثم اجل بصرك فيما حولك. فهل تعرف هنا احداً ؟

برتران : نهارك ، معيد ايها الضابط النبيل.

السيد الثاني : عافاك الله ايها الضابط بارول.

الجندي الثاني : ماذا تقصد ان تقول لسيدي لافو ايها الضابط، فأنا ذاهب الى فرنسا.

السيد الاول : ايها الضابط الكريم، هل تريد ان تزودني بنسخة من القصيدة التي نظمتها لديانا تكريماً لكونت روسيون ؟ لو لم تكن جباناً حقيراً لكنت جابهتك واخذتها منك بالقوة. لكن، الوداع. (يخرج الجميع ما عدا بارول والجندي الاول).

الجندي الاول : لقد خسرت كل شيء ايها الضابط، ولم تعد تملك سوى شالك.

بارول : من لا يتوقع دماره وخراب بيته على اثر اكتشاف اشتراكه في مؤامرة خطيرة ؟

الجندي الاول : إن تمكنت من ايجاد بقعة تحتقر فيها المرأة بقدر ما

نابني من الازدراء يسعك حينئذٍ ان تكون زعيم امة من السفهاء. اتمنى لك العافية يا سيدي، انا ايضاً ذاهب الى فرنسا وسنتحدث عنك هناك (يخرج).

باروِل : (وحده) الحمد لله على كل حال. مهما كان قلبي كبيراً فهذا الوضع يحمله على الانفجار. لا اريد ان اظل ضابطاً بعد الآن. لكني اريد أن آكل واشرب بأمان كأي مخلوق في الدنيا. يجب ان اكون بكل بساطة فقط كما انا في الحقيقة لأعيش على هواي. فمن يعرف نفسه انه جبان عليه ان يلتزم الحذر دائماً. لأن الجبان لا بد له يوماً من يصنّف كحمار. إصدأ يا سيف، وغبْ يا خجل. وانت يا بارول عش بهوان في احضان العار والذل. لقد اصبحت سخيفاً بل في غاية السخف. وما دام في هذه الدنيا نصيب من الموارد والمكان لكل رجل، هيا اذهب الى حيث يدعوك مصيرك المحتوم. (يخرج).

المشهد الرابع

في فلورنسا عند الارملة.

(تدخل هيلانة والارملة وديانا).

هيلانة : لكي اقنعك باني لم اظلمك سيفصل بيننا كبير الامراء، وامام عرشه سأجثو قبل إنجاز مشاريعي. منذ مدة ادّيت

له خدمة جليلة عزيزة على قلبه كحياته، خدمة تهز عواطف الجلاد المتحجر وتستدرّ رأفته والحنانة. علمت ان سموّه كان في مرسيليا، ولكي اذهب الى تلك المدينة وجدت قافلة على اهبة الرحيل، وكان الجميع يعتقدون اني مائتة. كان الجيش ممزقاً فرجع زوجي الى القصر، وكنت آمل، باذن مولاي الملك، ان اعود قبل وصول ضيفنا.

لارملة : يا سيدتي اللطيفة، لم يكن لديك سابقاً خادمة امينة ترعى مصالحك.

ميلانة : ولا انت كان لك سيدة، او بالحري صديقة لتكافيء اخلاصك. لا تظني ان السماء قد ارسلتني لامد يد العون الى ابنتك كما ساعدتني على ايجاد زوجي. لكن الغريب في الامر ان يلجأ الرجال الى مداراة ما يكرهون، بينما ثقتهم في اشواقهم الغرامي المخذولة تنهار في ظلام الليل. فتدغدغ الدعارة ما تبغضه عندما يغيب الوعي عن بصائرهم. سنتحدث في هذا الموضوع قريباً. وستتألمين كثيراً يا ديانا بسبب انقيادك الى تعليماتي المسكينة.

ديانا : ارجو ان احتفظ بشرفي الى آخر نسمة من حياتي، وان اظل صامدة اتحمل كل العذابات في سبيل رضاك.

ميلانة : استحلفك ان تصبري قليلاً. فالوقت يعيد الينا صفاء ايام الصيف فتزهر الاشجار وتغيب الاشواك، اذ رغم الشوك تشم رائحة شذى العطر. هيا نذهب، فعربتنا جاهزة

والمهل امامنا قصيرة المدى، والعبرة في النهاية، ما دامت الخاتمة تتوج العمل. ومهما كانت المشاكل معقدة وعسيرة الحل لا بد من بلوغ النتيجة الحاسمة. (تخرجان).

المشهد الخامس

في قصر كونت روسيون

(تدخل الكونتيس ولافو والمهرج).

لافو : كلا ثم كلا. لقد ذهب ابنك ضحية تضليل مشعوذ مكّار، ناعم الملمس يفتن بدهائه المشؤوم عقلية شعب بكامله. بدونه كانت كنّتك لا تزال على قيد الحياة، وابنك هنا بقربك في كنف الملك الذي يرعاه بطريقة افضل بما لا يقاس من هذا الثعبان الغدار الذي حدثتك عنه.

الكونتيس : كم اتمنى ان لا اكون عرفته، لأنه سبّب موت اشرف امرأة عرفتها. حتى إن كانت من لحمي ودمي، وإن كلفتني الكثير من عناء التربية ومن سهر الليالي لو كنت امها الحقيقية، لما تغلغل حبها في اعماق قلبي اكثر مما انا متعلقة بها الآن.

لافو : هي سيدة كريمة الاصل موفورة الكرامة.

المهرج : في الحقيقة هي جوهرة نادرة لا تقدر بثمن.

لافو : بل هي زهرة زاهية فواحة العطر، لا عشبة رديئة كما يظنها البعض.

المهرج : انا لست بعالم كبير يا مولاي، كي أميّز بين الزهر والعشب.

لافو : ما هي مهنتك ايها الدجال المجنون.

المهرج : اجل، انا مجنون في خدمة امرأة، ومحتال في خدمة رجل.

لافو : اشرح قولك.

المهرج : استميل زوجة الرجل الذي اخدمه.

لافو : هكذا تكون دجالاً في رعاية مصالحه.

المهرج : وألمّح لامرأته عن رغباتي المغرية بخدمتها.

لافو : انا موافق على قولك انك محتال ومجنون معاً.

المهرج : في خدمتك يا سيدي.

لافو : كلا ثم كلا.

المهرج : اجل يا مولاي. ان لم استطع ان اخدمك، سأخدم اميراً خطيراً مثلك.

لافو : اي امير تعني ؟ هل هو فرنسي.

المهرج : اسمه انكليزي، انما طلعته البهية الجذابة تدل بالحري على انه فرنسي اكثر مما هو انكليزي.

لافو : من هو هذا الامير ؟

المهرج : الامير الاسود يا مولاي، الملقب بأمير الظلمات اي ابليس.

لافو : (يرمي اليه بمحفظة نقوده) اليك نقودي، وانا اعطيك

اياها كي لا تكف عن خدمة سيدك وقد خبرته جيداً. فثابر على خدمته دائماً.

المهرج : انا من سكان الغابات يا مولاي، واحب اضرام النار. والسيد الذي حدثتك عنه يحب النار المشتعلة. ربما لانه امير خطير، فما على حاشيته إلا ان تقاوم مجلسه في البلاط. اما انا فأفضّل البيت الضيق الباب الذي تلجه العظمة بسرور راغبة في ضيقه لأنه يلائم القوم المتواضعين، ولأن اغلب الداخلين يرتجفون بسبب ضعفهم ويميلون الى الطريق المفروش بالزهور المؤدي الى الباب الكبير والنار الملتهبة.

لافو : سرْ في طريقك لاني اخذت اشعر بالتعب في حديثك، وانا أبيّن لك ذلك كي لا ينشأ خلاف بيننا. اكمل طريقك، واجتهد ان تحسّن معاملة جيادي بدون ان تحتال عليها.

المهرج : اذا احتلت عليها لن يكون خداعي سوى لعبة سمجة، والطبيعة تجيز مثل هذا اللعب. (يخرج).

لافو : (للكونتيس) تبا له من محتال لعين. انه حقاً وغد سافل.

الكونتيس : هذا صحيح يا مولاي، هو لا يعرف للياقة معنى. يمكث هنا بمحض ارادته؛ واذا أظهر قلة حيائه هكذا فلأنه لا يحترم احداً.

لافو : لا ضرر من ذلك، وانا احبه على تصرفه. اريد ان اقول لك اني عندما سمعت بموت هذه السيدة، وقرب عودة

سيدي ولدك، رجوت مولاي الملك ان يكلمه بخصوص ابنتي. فوعدني جلالته خيراً، واقترح عليّ هذا الزواج، عندما كانا كلاهما لا يزالان قاصرين. فحدثني سموه بإلحاح مجدداً في هذا الموضوع؛ ولكي يضع حداً لاستيائه من ولدك، لم يجد أولى من اللجوء الى هذه الوسيلة. فما رأي سعادتك ؟

الكونتيس : انا مسرورة جداً يا سيدي، واودّ ان ارى انجاز هذا المشروع قريباً.

لافو : سموّها عادت من مرسيليا الى مقرها منشطة كأنها في الثلاثين من عمرها. والملك سيكون هنا غداً، اذا صدقت معلوماتي التي نادراً ما تخدعني ولا تخيّب توقعاتي.

الكونتيس : يسعدني جداً ان آمل بمشاهدتها قبل ان اموت. فقد وصلتني بعض رسائل تفيدني ان ولدي سيكون هنا في هذا المساء. فاستحلف سيادتك ان تمكث عندنا حتى تتم مقابلتهما.

لافو : كنت اتساءل يا سيدتي، بأية صفة اتعرف اليهما ؟

الكونتيس : عليك ان تبرز امتيازاتك المشرفة.

لافو : لقد استخدمتها كثيراً على هواي. واشكر الله انني لا ازال انعم بالوقار والاحترام.

(يدخل المهرج)

المهرج : يا سيدتي، ها هو مولاي ابنك قد وصل، وعلى محياه عصبة من المخمل. ولست ادري ان كان يريد اخفاء

جرح وراء هذا المخمل. مهما كان الامر هي عصبة حلوة، وخدّ مولاي فيه خال بثلاث شعرات بينما خدّه الايمن يخلو من اية علامة فارقة.

لافو : لا بد من ان يكون قد تلقى جرحاً بنبل اثناء القتال، وهي شارة مشرّفة بدون شك.

المهرج : وجهك انت ليس انقى منه.

لافو : هيا نشاهد ابنك لاني في غاية الشوق لأتحدث الى جندي شاب نظيره.

المهرج : لعمري هناك عشرة اشخاص، يرتدون قبعات جميلة لها ريشات مميزة، وينحنون للسلام عليه. (يخرجان)

الفصل الخامس

المشهد الاول

في مرسيليا، امام منزل فخم.

(تدخل هيلانة والارملة وديانا وخادمان).

هيلانة : الهرولة في عربة السفر نهاراً وليلاً، امر مرهق حقاً، لكن لا حيلة لنا لتجنبه. انما ثقوا انتم الذين تتعبون في خدمتي باستمرار، رغم نحافتكم وانتم راضون لا تتذمرون، باني لن انسى وفاءكم ما حييت، واعتبر ذلك من حسن حظي.

الوجيه : ولن انسى افضالك يا سيدتي.

هيلانة : يخيل الي اني شاهدتك في بلاط فرنسا يا سيدي.

الوجيه : اجل ذهبت الى هناك مراراً عديدة.

هيلانة : اعتقد بانك لا تزال تحافظ على مقامك الرفيع وحسن رعايتك مهما تقلبت الظروف التي تبعد احياناً عن كل كلفة رسمية. لذا ألتمس منك خدمة اعتبرها معروفاً تطوق به جيدي على مدى الازمان.

الوجيه : ماذا تريدين يا مولاتي ؟

هيلانة : ان تتكرم وتسلم جلالة الملك هذا المعروض وان تساعدني على مقابلته، بما لك من نفوذ في البلاط.

الوجيه : الملك ليس الآن هنا.

هيلانة : ليس هنا ؟

الوجيه : لا، حقا. لقد رحل الليلة البارحة مستعجلاً على غير عادته.

الارملة : يا الهي لقد ضاع تعبنا سدىً.

هيلانة : العبرة في النهاية يا مولاتي. مهما عاكستنا الظروف وهزلت الوسائل، لا بد من الوصول الى الغاية، اذا كان لنا فيها من نصيب. ارجوك ان تقول لي الى اين ذهب ؟

الوجيه : الى روسيّون على ما فهمت، حيث انا ايضاً ذاهب.

هيلانة : (تمد اليه ورقة) رجائي اذاً يا سيدي، بما ان من المحتمل ان تقابل الملك قبلي، ان تتكرم وتسلمه هذه الورقة. أؤكد لك انك لن تتعرض لأية ملامة بل بالعكس سيشكرك على خدمتك. وسأوافيكما باسرع وقت ممكن.

الوجيه : (يستلم الورقة) سأقوم بهذه المهمة مسروراً.

هيلانة : وستكون مشكوراً مهما حدث. هيّا نمتطي صهوة جيادنا (لرجالها) تعالوا نتهيأ للرحيل (يخرجون).

المشهد الثاني

في باحة قصر كونت روسيون.

(يدخل المهرج وبارول بيده ورقة).

بارول : يا سيدي الكريم، ارجو ان تسلم هذه الرسالة للسيد لافو. كنت في الماضي تعرفني اكثر من الآن، حين كنت ارتدي ثياباً انظف. لكنني حالياً كلي غبار، والتعب يبدو على سحنتي ورائحة عرقي ربما تبعث على الاشمئزاز.

المهرج : حقاً هيئتك لا ترضي ولا تبعث كثيرا على الارتياح، وانا عازم على ان لا أشمّ مثل هذه الرائحة الكريهة بعد الآن. (يسد أنفه) ارجوك ان تقترب من النافذة المفتوحة.

بارول : هيا لا حاجة الى سدّ انفك يا سيدي، فانا لم اتكلم إلا على سبيل التشبيه فقط.

المهرج : يا صديقي اذا كان تشبيهك له هذه الرائحة، فعليّ ان اسد انفي لقاء اي تشبيه آخر. ها هوذا لافو بذاته.

(يدخل لافو)

شكراً. سيادته يمثل الغدر، كالذئب الماكر الذي سقط في مستنقع قذر ضحل المياه. ارجوك ان تفعل ما تستطيع عمله لاغراق هذا اللعين، لأن سحنته تدل على المسكنة والبؤس والخبث واللؤم والرداءة مجمعة. انا

اؤكد لك ان كآبته تثير نفوري. لذا تركته لسيادتك (يخرج).

بارول : يا مولاي، انا رجل سيء الحظ، قست عليّ تقلبات الايام.

لافو : وبماذا تريد ان اسعفك ؟ فات الاوان حالياً لتقليم اظافره. بماذا اسأت الى الزمان حتى عاملك بهذه الخشونة، وكيف خدشت الظروف وجهك، وهي تشبه السيدة الشريفة التي لا تدير للدجالين ظهرها كي لا تنجح مكائدهم في رعايتها. (تعطيه قطعة نقود). هذا ربع دينار لك. اتمنى ان ينصفك الدهر ويغير احوالك ويسعد الحظ ايامك. لديّ اشغال اخرى، فاعذرني.

بارول : ألتمس من سيادتك ان تسمع مني هذه الكلمة الوجيزة.

لافو : (يعطيه قطعة نقود اخرى) هل تريد المزيد من المال ؟

بارول : لا يا سيدي الكريم، انا ادعى بارول.

لافو : لذلك تريد ان تقول لي كلمتك. لعنة الله على الشيطان. هات يدك. كيف حال طبلك ؟

بارول : انت اول شخص تمكن من رؤيتي على حقيقتي وعرف قيمتي.

لافو : حقاً ؟ وانا اول من خسروا صداقتك.

بارول : انت وحدك تستطيع ان تعيد اليّ اعتباري، لانك انت سبب ضياعي.

لافو : سحقاً لك ايها اللعين. انت تريد بمساعدتك ان اقوم في وقت واحد مقام الله الكريم العادل ومقام الشيطان اللئيم

القادر. فأرفعك بعد ان تسببت في سقوطك كما تقول. (يسمع صوت بوق) ها قد وصل الملك. الا تسمع صوت البوق يا محتال ؟ ستأتي اليّ فيما بعد. بالامس بلغتني اخبارك المشؤومة يا مهووس، وهي غير مطمئنة ابداً. هيّا اتبعني.

بارول : اشكر الله على وجودك معي. (يخرجان).

المشهد الثالث

في قاعة كبيرة بقصر كونت روسيّون

(تصدح الموسيقى. يدخل الملك والكونتيس ولافو وسادة وحرس، الخ).

الملك : لقد خسرنا بفقدانها جوهرة غالية. فخبا رونق زهونا. اما ولدك فقد ضيّعه جنونه لانه لم يعرف مقدار نفسه.

الكونتيس : هذه مسألة قديمة يا صاحب الجلالة. ألتمس من سيادتك ان لا ترى فيها سوى فورة عابرة اثارها نزف شبابه، لان الدم يغلي في عروقه ويلهب عنفوانه فيحرق ما حوله، وقد اعمى الطيش بصيرته.

الملك : ايتها السيدة الموقرة، لقد سامحته ونسيت اساءته. ولو كنت انوي الانتقام منه، لما كان الآن هنا بجوارك.

لافو : هذا ما وددت ان اعبّر عنه، وانا التمس عفوك ايها الملك وصفحك. ارجو المعذرة، فهذا الشاب تصرف حيالك وحيال والدته وزوجته ايضاً بشكل مهين. انما الضرر

الاكبر لحقه هو شخصياً. اذ فقد زوجته الحسناء وبريق عينيها النجلاوين وعقلها الراجح وفضيلتها السامية.

الملك : هيا اجلبوه الى هنا، فان إلقاء نظرة واحدة عليه تفسّر كل ما يعذب فؤاده وتخفف ما اقترفه من ذنوب. فالمرأة التي اساء اليها اكثر من سواها قد فارقت الحياة وابقت ذكراها في قلبه غصة لا تخمد نارها. فليتقدّم كغريب لا كمجرم (لأحد الوجهاء) أفهمه ان هذه هي رغبتي.

الوجيه : امرك مطاع، يا صاحب الجلالة (يخرج).

الملك : (للافو) ماذا قال عندما ابديت له فكرة اقترانه بابنتك ؟ هل حدثته بالامر ؟

لافو : هو يحترم جلالتك احتراماً لا مزيد عليه، ولن يخالف مشيئتك.

الملك : اذا، سنعدّ له وليمة العرس. ومنذ برهة استلمت رسائل تشيد بامجاده.

(يدخل برتران).

لافو : ما اروع محياك المشرق، وما ازهر طلعتك البهية !

الملك : (لبرتران) انا لست كالنهار الحزين، بل كالشمس الساطعة، حتى إن كان البرد يتساقط بغزارة. أمام الاشعة المنيرة تتبدد الغيوم، فأبرز اذاً نفسك لان الطقس عاد اليه الصفاء.

برتران : ألتمس من رحابة صدرك يا صاحب الجلالة ان تصفح عن ذنوبي وتقبل توبتي الصادقة.

الملك : كل شيء انتهى. لا تزد كلمة على ما نطقت به. ولنغتنم

فرصة السلام والوئام لأن الوقت يمر بسرعة ونحن نتقدم في السن، فلا ندعه يفلت منا (يشير لافو الى برتران) هل تتذكر ابنة هذا السيد ؟

برتران : بكل فخر واعجاب ايها الامير. في الماضي وقع اختياري عليها بدون ان يجسر قلبي على دفع لساني الى التعبير لها عن حقيقة شعوري نحوها وحيال هذه العاطفة الأولى لست ادري كيف طغى الحقد عليّ فنظرت اليها بعين الازدراء وكرهت جمالها وكرهت فضائلها، وفي كل مكان لم ابصر إلا نقيض صفاتها العالية بابشع الظواهر الخداعة. وهكذا بدت لي هذه المرأة التي يثني على حسنها وعلى صفاتها جميع الرجال والتي احببتها انا في الماضي فخسرتها وقد انقلب صلاحها في عيني الى أحط الفساد.

الملك : ها انت تجد لنفسك الاعذار الكافية. فان إقرارك بانك احببتها يخفف من سوء تصرفك. والحب الذي يأتي متأخراً يشبه نعمة تنزل علينا ببطء وتنقلب على ملتمسها الحكيم كانها ملامة مريرة تصرخ : ان فقيدتنا صبية بريئة، لأن استخفافنا الجاني حملنا على الاستهتار بالاشياء الثمينة التي نملكها ولا نعرف قيمتها إلا عندما نخسرها، كما اننا لا نقدّر الاشخاص من حولنا إلاّ بعد ان يغيبوا عن انظارنا أو يصبحوا من سكان القبور. غالباً ما تدفعنا اهواؤنا العمياء الى التضحية بأعز اصحابنا الذين نبكيهم بعد ان نخسرهم لان صداقتنا العميقة لا

تلبث ان تدرك تصرفنا المشين، لكن بعد فوات الاوان. ارجو ان يكون هذا التنبيه ناقوس الخطر حيال هيلانة الفاتنة. الأولى بنا ان ننساها. عليك الآن ان تقدم هديتك للحسناء مدلين لأن الجميع يوافقون عليها، ونحن هنا بانتظار ان ينتهي ترملك بافراح عرسك هذا الثاني.

الكونتيس : ارجو ان يكون ابهج من الاول. بارك الله مسعاك، والاّ أدركني الموت قبل ان تتم فرحة زواجك هذا.

لافو : اقترب يا ولدي، يا فرحة عمري وثروة أسرتي. قدم لي برهاناً على حبك لابنتي على رجاء ان يجمعك بها في القريب العاجل. (ينزع برتران من اصبعه خاتماً ويعطيها اياه) بحق لحيتي التي وخطها الشيب، وجمال شعر هيلانة التي ماتت وكانت امرأة مثاليّة، هذا خاتم يشبه الذي رأيته في اصبعها يوم ودعتها وهي تغادر البلاط.

برتران : هذا لم يكن يوماً خاتمها.

الملك : (يأخذ الخاتم) دعوني اتفحصه، لأن نظري وقع عليه منذ برهة مراراً عديدة وانا اتحدث، ويخيل اليّ ان هذا الخاتم يخصني. لاني عندما اهديته لهيلانة قلت لها : اذا احوجتها الظروف الى حمايتي، فهذا الخاتم كفيل بان يؤمنها لها. فهل احتلتَ عليها وحرمتها من اقوى وسيلة يمدها بما يلزمها من العون ؟

برتران : أؤكد لك يا صاحب الجلالة ان هذا الخاتم لم يكن يوماً خاتمها.

الكونتيس : اقسم لك بحياتي يا بني اني شاهدته في اصبعها،

وكانت حريصة عليه حرصها على حياتها.

لافو : انا واثق بانها كانت تضعه في اصبعها.

برتران : انت مخطىء يا مولاي، هي لم تره ابداً، اذ إني تلقّيته من النافذة حين كنت في فلورنسا، وكان مصروراً في ورقة كتب عليها اسم من رمتني به، وهي فتاة من النبلاء كانت تظنني حراً من كل ارتباط. لكنها عندما اوضحت لها حقيقة وضعيتي واعلنت لها اني لا استطيع تلبية رغبتها حسب الاصول والشرف تحفظت بازعان اليم. لكنها دون ان ترضى ابداً بان تسترد خاتمها هذا.

الملك : بلوتوس ذاته الذي يعرف فنّ تحويل المعادن لا يملك سر طبيعة هذا الخاتم اكثر مني. لانه كان يخصني، وقد خصّ هيلانة ايضاً. فلا اهمية لمن اعطاك اياه. ان كنت حقاً على يقين بانك تتمتع بكامل وعيك، اعترف بانه كان لها واعترف ايضاً بأية وسيلة خسيسة ملتوية قد حصلت عليه منها، يوم اشهدت عليها جميع الملائكة بانها لا تنتزعه من اصبعها إلا لكي تعطيك اياه شخصياً في السرير الذي لم تشاركها اياه مطلقاً او لكي ترسله اليّ اذا داهمتها محنة فادحة.

برتران : هي لم تره ابداً.

الملك : اقسم لك بشرفي انك لا تقول الحقيقة، وانك تبعث في نفسي قلقاً خانقاً. فلو ثبت لدي انك عديم الانسانية الى هذا الحد... هذا غير ممكن. مع ذلك انا اعلم جيداً انك كنت تكرهها حتى الموت. وقد فارقت الحياة، ولا

شيء، إلا عندما تغمض عيني ساعة ألفظ آخر انفاسي، يمكن ان يغيّر قناعتي بسرّ هذا الخاتم. (للحراس) خذوه. (يطوق الحرس برتران) فهما حدث، فالبراهين الظاهرة تثبت ما اخشى ان يكون قد حلّ بها وما سُمْتَهُ هذه الصبية باستهتارك من أليم العذاب. خذوه. وسأنظر فيما بعد في هذه القضية بتعمق وتدقيق.

برتران : اذا توصلت الى اثبات كون هذا الخاتم يخصّ هيلانة تثبت في الوقت ذاته باني اضجعت في سريرها في فلورنسا حيث لم تذهب ابداً في حياتها (يخرج برتران، يحيط به الحرس).

(يدخل الوجيه الذي صادفته هيلانة في مرسيليا).

الملك : هذه الافكار الفظيعة تقلق بالي.

الوجيه : ايها الملك العادل، لست ادري ان كنت استحق الملامة او لا. هذا معروض قدمته سيدة من فلورنسا كادت تفقد عفّتها اربع او خمس مرات ورجتني ان اسلمك اياه شخصياً. فقد كلفتني بهذه المهمة وألحّت علي بلطف كلامها ملتمسة وهي تنتظر على احر من الجمر جوابك وأوامرك يا صاحب الجلالة. وقد بدت اهمية القضية بوضوح على محياها المشرق اذ قالت لي بكلماتها الرقيقة التي تشغل الآن بال جلالتك بان الامر يهمك للغاية. (يسلم الرسالة للملك الذي يغضها).

الملك : (يقرأ) ...« وبعد وعود عديدة صريحة بأن يتزوجني

كونت روسيون عندما تموت امرأته، يحمر وجهي خجلاً بان اعلن انه اغواني. والآن ترمل هذا الكونت ولم يف بوعده لي بانقاذ شرفي، بل هرب من فلورنسا بدون ان يعلمني بعزمه على الرحيل لئلا اطالبه بوفاء تعهده. فارجوك ان تنصفني منه يا صاحب الجلالة وانا واثقة بانك قادر على ذلك. وإلاّ انتصر شاب طائش اغوى فتاة فضاعت عفتها لانها صدقت كذبه وانطلى عليها خداعه ».

ديانا كابوليه

لافو : اودّ أن اشتري صهراً جديداً من السوق وابيع هذا الغشاش الذي لم اعد أثق به.

الملك : لقد حالفتك السماء يا لافو، بهديك الى هذا الاكتشاف الهام. جيئوني بصاحبة هذا المعروض. وعجلوا باحضار الكونت الى هنا. (يخرج احد الوجهاء مع خادم. للكونتيس) اخشى يا سيدتي ان تكون هيلانة قد قضت نحبها ضحية مجرم شرس.

الكونتيس : في هذه الحالة، ليس امامنا إلا الاقتصاص من المجرم اللئيم.

(يدخل برتران، يحيط به الحرس.

الملك : (لبرتران) انا اعجب يا سيدي من نظرتك الى المَرأة كأنها عنقاء توحي اليك بالهرب حالما تحلف بانك ستؤمن لها الحماية الزوجية، ومن رغبتك الآن في

الزواج. (يعود الوجيه مصطحباً ديانا والارملة) من هي هذه المرأة ؟

ديانا : انا يا مولاي، تلك التعيسة الفلورنسية المنحدرة من اسرة كابوليه القديمة العهد. وعلى ما بلغني، اصبح معروضي معلوماً لديك وبت يا صاحب الجلالة تعرف ما اشكو منه، وكم انا مظلومة بسببه.

الارملة : انا امها يا مولاي. وشيخوختي وشرفي يأبيان وقوع مثل هذا الحيف المشين الذي لا نقره ولا نرضى به جميعنا بان يذهب ضحيته هذان الزوجان لا بد من ايجاد حل لهذه المشكلة المعقدة.

الملك : اقترب ايها الكونت. هل تعرف هاتين المرأتين ؟

برتران : انا لا استطيع ولا اريد ان انكرهما يا مولاي. اني اعرفهما حق المعرفة. هل هناك تهمة اخرى ؟

ديانا : (لبرتران) لماذا تنظر الى زوجتك بمثل هذا الازدراء ؟

برتران : لا علاقة لي بهذه المرأة يا مولاي.

ديانا : اذا تزوجت ستمنح امرأة غيري شخصك الذي يخصني، ولغيرها ستقدم عهدك المقدس الذي يخصني ايضاً، وستحرمني من ذاتي لاني اخصّ نفسي بطبيعة الحال، ووعودك ليست قسماً من كيانك اكثر مما تخص التي ستتزوجها والتي سترتبط هكذا بحياتنا نحن الاثنين.

لافو : (لبرتران) سِمْعَتُك، على ما ارى، ليست بمستوى فضيلة ابنتي، لذا لا اعتبرك مستحقاً ان تكون زوجها.

برتران : (للملك) يا مولاي، هذه المرأة مجنونة ومفترية، وقد سخرت في الماضي مراراً من تصرفاتها. فارجو أن تغيّر جلالتك رأيك فيّ، وان تكون على يقين باني ارفع من ان انحط الى الدرك الذي تظنني انحدرت اليه.

الملك : رأيي، يا سيدي، أن تتفاهم واياها حين تتصالحان. فأملي ان تضعك افعالك في مستوى أعلى من الذي اراك فيه.

ديانا : ارجوك، يا مولاي الكريم، ان تسأله، بعد أن يقسم اليمين، ألم يمتلك بتوليتي ؟

الملك : ما هو جوابك على هذا السؤال الوجيه ؟

برتران : انها عاهرة لا تستحي، تبيع جسدها لكل من يدفع ثمنه الرخيص في سوق الدعارة.

ديايا : هذه اهانة لا اقبلها يا مولاي. لو كنت كما يقول لكان اشتراني بابخس الاثمان. لا تصدقه. انظر الى هذا الخاتم الذي يخطف جماله الابصار والذي تقدر قيمته بثروة طائلة. لقد اعطاني اياه كعاهرة في سوق الدعارة كما يقول، لو كنت انا كذلك. (تشير الى خاتم في اصبعها).

الكونتيس : ها هو يحمرّ خجلاً. لان هذا هو خاتمه بالذات. فمنذ عشرة اجيال هذه الماسة انتقلت بالوراثة من الجد الى الابن ثم الى الحفيد، وهكذا حملها جميع افراد الاسرة. فهي اذاً زوجته، وهذه الماسة هي بمثابة الف شاهد والف برهان.

الملك : الم تقولي انك ابصرت هنا في البلاط شخصاً يمكن استدعاؤه للشهادة.

ديانا : هذا صحيح يا مولاي، لكني اكره ان اقدم للشهادة مثل هذا الرجل الدنيء الذي يدعى بارول.

لافو : رأيت اليوم هذا الرجل، ان كان يستحق اعتباره من الرجال.

الملك : (يلتفت الى رجاله) ابحثوا عنه وجيئوني به (يخرج بعض الخدم).

برتران : ما الفائدة ؟ هو معروف كمحتال دجال ملطخ بجميع ما في العالم من اقذار، تأنف طبيعته المنحطة ان تقول كلمة صدق واحدة. فهل شهادة مثل هذا المخلوق الخبيث تجعلني هذا أو ذاك من اصناف البشر ؟

الملك : المدعية لديها خاتم اخذته منك.

برتران : هي صادقة يا مولاي. وهذا دليل على انها أعجبتني وانها جذبتني بغنجها ودلالها، فارتميت في احضانها اثناء فورة الشباب. وكانت عالمة بالفوارق التي تفصل بيني وبينها. ولكي تذلل كل رفض من قبلي اثارت اشواقي بتمنعها الشكلي، لانها تعرف جيداً ان كل ممنوع مرغوب وان كل عقبة تقف في وجه الشهوة تحمسها وترغبها في مضاعفة الالحاح. اخيراً لا انكر فنّها البارع في اصطياد الرجال وفي فرض شروطها عليهم. فنالت هذا الخاتم لقاء ما جادت عليّ به من متعة كما يشتريها غيري بسعر السوق.

ديانا : لا انكر ذلك. فانت بعد أن طردت زوجتك الأولى النبيلة، لم استغرب منك أن ترذل زواجنا. لديّ كلمة اخيرة. بما انك تفتقر الى الفضيلة انا لا آسف على فقدانك كزوج. كلّف احداً يجلب لك خاتمك كي اعيده اليك بشرط ان ترد لي خاتمي.

برتران : لا خاتم عندي.

الملك : ارجوك ان تشرحي لي كيف كان خاتمك.

ديانا : يا مولاي، هو يشبه تماماً هذا الخاتم الذي تضعه في اصبعك.

الملك : (يمد يده) هل تعرفين هذا الخاتم ؟ انه عين الخاتم الذي كان في اصبع الكونت.

ديانا : وهو الخاتم الذي اعطيته اياه حين اندسّ في سريري.

الملك : اذاً كانت قصة رميه اليه من النافذة رواية مختلقة.

ديانا : وان ما قلته انا هو الحقيقة الناصعة.

(يدخل بارول).

برتران : (للملك) يا مولاي، انا أعترف بان هذا الخاتم كان يخصها.

الملك : انت تتلعثم بكل بساطة، وألاحظ انك ترتجف كريشة في مهب الريح. (يشير لديانا الى بارول) اهذا هو الرجل الذي تكلمت عنه ؟

ديانا : اجل يا مولاي.

الملك : (لبارول) تكلم يا محتال، وقل بصراحة كل ما تعرف. انا آمرك بأن تتكلم ولا تخف غضب معلمك، فانا

احميك من أذاه، اذا كنت صادقاً. ماذا تعرف عنه هذه المرأة ؟ (يشير الى الكونت والى ديانا).

بارول : يا مولاي، لقد تصرف معلمي دائماً كرجل نبيل شر ونظير كل الوجهاء تصرف ايضاً على هواه.

الملك : هيا اخبرنا بدقة وتفصيل، هل أحب هذه المرأة.

بارول : اجل يا مولاي، لقد احبها.

الملك : كيف أحبها ؟

بارول : أحبها يا مولاي كما يهوى اي وجيه امرأة جميلة ت بمجامع القلوب.

الملك : اراك تتقلب في كلامك. فأي نوع من المحتالين ان

بارول : انا رجل مسكين في خدمتك يا مولاي.

لافو : هذا طبل ممتاز يا مولاي، لكنه ركيك العبارة وخط غير مفوّه.

ديانا : هل تعرف إن كان وعدني بالزواج ؟

بارول : بذمتي، انا اعرف اكثر مما اريد ان اقول.

الملك : اولا تريد ان تصرح بكل ما تعرف ؟

بارول : اجل يا صاحب الجلالة، كنت الوسيط بينهما كما ق لسيادتك. وأضيف انه كان يحبها، بل كان في الحق مولعاً بها، ويتكلم عن ابليس وعن المطهر وعن الثور ولا ادري ماذا ايضاً. علاوة على ذلك كنت اس تمتماتهما، فعلمت انهما ناما في سرير واحد وانه وع بالزواج، وغير ذلك من التفاصيل التي تجلب على رأ الويلات اذا بحت بها. لذا لن اقول كل ما اعرفه.

الملك : لقد قلت كل ما يهمنا، إلا اذا اضفت انهما متزوجان. في الواقع انت بارع في تمويهاتك. يمكنك ان تقف هناك. (لديانا) تقولين ان هذا الخاتم يخصك ؟

ديانا : اجل، يا مولاي الكريم.

الملك : من اين اشتريته ؟ او بالحري من اهداك اياه ؟

ديانا : لم يعطني اياه احد، ولم اشتره.

الملك : من اعارك اياه ؟

ديانا : لم استعره من احد.

الملك : اين وجدته اذاً ؟

ديانا : لم اجده في مكان.

الملك : بما انك حصلت عليه بطريقة غير التي ذكرناها، اعلميني كيف امكنك ان تعطيه اياه ؟

ديانا : انا لم اعطه اياه مطلقاً.

لافو : هذه المرأة زلقة اللسان يا مولاي، وتتكلم كما يحلو لها.

الملك : هذا الخاتم كان يخصني، وقد أهديته لأول زوجة اقترن بها الكونت.

ديانا : انا اجهل إن كان لجلالتك او لها.

الملك : خذوا هذه المرأة، لأنها لا تعجبني. احبسوها واحبسوه هو ايضاً. (لديانا) اذا لم تبيّني لي كيف وصل اليك هذا الخاتم قبل مرور ساعة من الآن ستعاقبين.

ديانا : لن اقول لك ذلك ابداً.

الملك : خذوها.

ديانا : انا مستعدة لتقديم سند كفالة، يا صاحب الجلالة.

الملك : الآن ايقنت انها عاهرة.

ديانا : (لبرتران) اقسم لك، إن كنت عرفت في حياتي رجلاً، انك حتماً انت.

الملك : (يشير الى برتران) لماذا اتهمتها اذاً طوال هذا الوقت ؟

ديانا : لانه مذنب وغير مذنب. وهو يعرف ولا يعرف اني لم اعد عذراء. ايها الملك الكريم، اقسم بحياتي باني لست عاهرة. فأنا إماعذراء، او زوجة هذا العجوز (تشير الى لافو).

الملك : هذه المرأة تسخر منّا. خذوها الى السجن.

ديانا : يا اماه ! اذهبي واحضري لي مبلغاً من المال لكفالتي. (تخرج الارملة) ارجوك ان تصبر قليلاً عليّ يا صاحب الجلالة. لقد ارسلت في طلب الصائغ الذي صنع هذا الخاتم وهو يجيب عني. اما هذا السيد الذي استغلّني كما يعلم جيداً، فمهما كان موقفه غير سليم بالنسبة اليّ، انا اسامحه. هو يعلم جيداً ايضاً انه دنّس سريري، ومع انه صيرني امّاً، ورغم كوني في نظركم ميتة، انا اشعر بجنيني يتحرك في احشائي. هذا هو سريري. فالتي تظنونها ميتة، لا تزال في الحقيقة على قيد الحياة. وهذا ما يفسر هذه الأحجية الغامضة. (تعود الارملة تصحبها هيلانة).

الملك : او ليس في الامر من مستحضري ارواح يخدعون نظري

بطريقة علمية ؟ هل ما اراه حقاً واقعي ؟

هيلانة : كلا، يا سيدي الكريم، انت ترى خيال زوجة، اي اسمها لا شخصها.

برتران : لا بل كلاهما معاً. العفو.

هيلانة : يا سيدي العزيز، عندما كنت نظير هذه الصبية، عرفتك حنوناً رؤوفاً. هذا هو خاتمك، وهذه رسالتك التي تقول فيها : « عندما تحصلين علي الخاتم الذي اضعه في اصبعي، وتحملين في احشائك جنيناً من صلبي. الخ... » كل هذا قد تمّ. فهل تريد ان تصبح زوجي، الآن وقد أمسيت مرتبطاً بي بعهد مزدوج ؟

برتران : عندما تفسّرين كل هذا بوضوح لجلالة الملك، سأحبك اكثر فاكثر.

هيلانة : اذا كان ما قلته لك غير واضح، فبديهي ان يفصل بيننا طلاق حاسم (للكونتيس) يا امي العزيزة، هل اراك حقيقة امام ناظري ؟

لافو : عيناي تشعران بحريق كمفعول البصل. سأبكي في الحال (لبارول) يا عزيزي المغرور، اعرني منديلك لحظة. اشكرك. تعال لتراني وتسليني. انما اترك هنا رسميّاتك لأنها تستدعي الشفقة.

الملك : (لهيلانة) اعلميني مرحلة فمرحلة كيف جرت هذه القصة. ولتغمرنا حقيقتها بالسعادة والهناء. (لديانا) ان كنت لا تزالين زهرة نضرة نقية اختاري زوجاً وانا ادفع بائنتك. لاني حزرت انك بمساهمتك الفعالة قد انقذت

حياة زوجة بمحافظتك على بتوليتك وطهارتك. فهذه المغامرة وكل التعقيدات التي رافقتها ستتوضح لنا حسب مشيئنا. الى الآن كل شيء يبدو على ما يرام. واذا كانت الخاتمة ايضاً هكذا سعيدة، فان كل الويلات الماضية ستزول وتتضاعف حلاوة المستقبل. (تصدح الموسيقى).

(يتجه الاشخاص نحو المشاهدين).

غمرت الملك موجة من السرور بعد ان تمّ تمثيل المسرحية، وكل شيء انتهى بالحسنى. اذ تسنى لنا ان نحصل على رضاكم عن موضوع الرواية. وكل يوم نبذل مجهوداً جديداً لنيل اعجابكم، ملتمسين سماحكم ودفاعكم عنا. فمدوا لنا يد العون بلطف، وخذوا قلوبنا المُحبة معكم. (يخرج الجميع).

(تمت)


توزيع دار الجيل